# قراءة فى كتاب البديع

**لابن المعتز**

سلامه جمعه داود

مدرس فى قسم البلاغة والنقد

" عبد الله بن المعتز واحدُ دَهْرِهِ

فى الأدب والشعر"

ابن النديم

"الفهرست : ١٦٣"

"كان يتحقَّق بعلم البديع تحقُّقاً

ينصر داعواه فيه لسانُ مُذَاكرته"

أبو بكر الصُّولى

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمـــة

اللهم لك الحمد كلُّه ، ولك الشكر كلُّه ، وإليك يرجع الأمر كلُّـــه ، نسألك أن تصلى على أحب خلقك ، وأكرم خلقك ، وسيد خلقك ، ســـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صلاة تقربنا من رضوانك ، وتباعدنا عن ســخطك ، وتفتح لنا أبواب عفوك ، وتغلق عنا أبواب عقابك ، وعلـــى آلـــه وصحبـــه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ،

فهذه قراءة فى "كتاب البديع" للشاعر الأديب ، العالم ، خليفـــة يـــوم وليلة ، عبد الله بن المعتز (٢٤٧-٢٩٦ هـــ) ، والكتاب عَلَـــمٌ فى مصـــادر البلاغة ، لا يمكن إغفاله فى التأريخ لهذا العلم ؛ لأنه - فيما وصلنا من تـــراث أجدادنا - أول كتاب استقل بالتأليف فى البلاغـــة وحدهـــا ، دون أن تختلـــط مسائلها بغيرها من العلوم ، كما نراه فى كتابين تقدما عليه ، وهما "مجاز القرآن" لأبى عُبيدَةَ مَعْمَرِ بنِ الْمُثَنَّى (ت ٢١٠ هـــ) و "البيان والتبيين" لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـــ) ، فقد تناثرت مسائل البلاغة فى هذين الكتابين واختلطت بغيرها من مسائل اللغة والنحو والصرف فى كتاب "مجاز القـــرآن" ، واختلطت بأخبار الشعراء والخطباء والكُتَّاب ، وبالفكاهة وغيرهـــا فى كتـــاب "البيان والتبيين" ، وسَلِم "كتاب البديع" للبلاغة وحدها ، فكان فى ذلك الزمـــن الأول فردا فى بابه ، ومَعْلَما بارزا فى سلسلة البحث البلاغى .

والواقف على أطراف من مصادر البلاغة يعرف لهذا الكتاب ذكْرَه فيها وفضله وأثره وأنه كان من أصولها المعتمدة ، فهو من المصادر التى اعتمد عليـــها

كثير من العلماء الأعلام ، كالآمدى (ت ٣٧٠ هـــ) وأبـــى هلال العســـكرى ( ت ٣٩٥ هـــ ) وابن رشيق ( ت ٤٥٦ هـــ) ، والإمام عبد القاهر الجرجانى ( ت ٤٧١ أو ٤٧٤ هـــ ) ، وغيرهم من العلماء المؤسسين لهذا العلم .

قال الآمدى فى ثنائه على ابن المعتز بعد ما نقل عن كتابه نصا طويـــلا واستأنس بكثير من شواهده [١] : " ما زالت الرواة وشيوخ أهل العلـم والأدب يستحسنون هذا البيت [٢] ، ويستجيدونه له ، وذَكَرَهَ عبد الله بن المعتز - وقـد علمتم فضله وعلمه بالشعر - فى باب ما اختاره من التشبيه فى كتابه الذى نسبه إلى البديع " [٣] .

وكان ذلك مما صرف عناية العلماء والباحثين قديما وحديثـــا إلى هـــذا الكتاب ، فأقيمت حواليه دراسات لا تحصى كثرةً ، كان من أهمها فى العصـــر الحديث ما كتبه عنه الدكتور أحمد موسى فى كتابه "الصبغ البديعـــى فى اللغـــة العربية" [٤] ، والدكتور شوقى ضيف فى كتابه "البلاغة تطـــور وتـــاريخ" [٥] ، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه "ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقـــد

---

(١) ينظر كتاب " الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى " للآمدى : ١ / ١٣ - ١٦ ت . السيد أحمد صقـر ط . دار المعارف ط . رابعة .

(٢) أى بيت البحترى :

يُخْفِى الزجَاجةَ لَوْنَهَا ، فكأنَهـــا فـــى الكَف قائمةٌ بغيرِ إنَاءِ

• وهو فى ديوانه : ١/٧ ت . الصيرفى ط . دار المعارف .

(٣) الموازنة : ١/٣٣ والبيت من شواهد كتاب البديع ص ٧٣ ت . كراتشقوفســـكى ط. دار المســـيرة ط. ثالثة ١٤٠٢ هـــ / ١٩٨٢ م .

(٤) ينظر "الصبغ البديعى فى اللغة العربية" د . أحمد إبراهيم موسى : ص ١٢٩-١٤٣ نشر دار الكـــاتب العربى . القاهرة ١٣٨٨ هـــ / ١٩٦٩ م..

(٥) ينظر "البلاغة تطور وتاريخ" د . شوقى ضيف : ص ٦٧-٧٥ ط . دار المعارف ط . عاشرة .

والبيان" [1] ، كما نشر عنه شيخنا الدكتور الشحات محمد عبد الرحمـــن أبـــو ستيت بحثا بعنوان " كتاب البديع وأثره فى الدراسات البلاغية" [2] .

ومع كثرة الدراسات حول هذا الكتاب القيمَ إلا أنه بقيـــت للعـــاجز كلمات يقولهن ، وتبقى كلمات أخر يقولهن من يروم دراسة أخرى جديـــدة فى هذا الكتاب .

أما ما بقيت من كلمات يقولهن العاجز أضعف خلـــق الله ، فيمكـــن إجمالهن فيما يلى :

(١) مراجعة ما تواتر الخبر به من أمر مخطوطة الكتاب بأنها نشرة وحيـــدة فى مكتبة "الاسكوريال بمديد" برقم ٣٢٨ آداب ، وجزمت هذه الدراســة أنها ليست نسخة وحيدة ، بل لها أخت أو أخوات فى المكتبـــة ذاتهـــا اعتمدها المستشرق الروسى "كراتشقوفسكى" فى التحقيق .

(٢) مناقشة ما أثاره المستشرق الروسى عن كتاب البديع ومؤلفه .

(٣) وقفة مع "شرح كتاب البديع" لشيخنا العلامة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى .

(٤) استمداد جوانب منهجية مهمة من الكتاب ، تتعلق بدعوى "السَبْق" إلى فنٍ أو علمٍ أو شئ منهما = وبالتنبيه على شئ جديد فى طريقـــة ابـــن المعتز فى الاستشهاد بالشعر - وبالإشارة إلى طريق قيم لتذوق البيـــان يقوم على فرض بديل أو بدائل محتملة لما ورد فى النص .

---

(1) ينظر "ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان" د . محمد عبد المنعـــم خفـــاجى ص ٥٦٥ - ٧١٤ ط . دار الجيل ١٤١١ هـــ / ١٩٩١ م .

(2) ينظر "كتاب البديع وأثره فى الدراسات البلاغية" د . الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت ، بحـــث بمجلـــة كلية اللغة العربية بدمنهور ص ٩ - ٦٩ العدد الثالث ١٤٠٥ هـــ / ١٩٨٥ م دار الطباعة المحمدية .

وأرجو أن لا أكون مخطئاً فى هذه الكلمات ، بل أرجو أن أكون موفقا ، وأن تبقى فى عقبى مما يبقى وينفع .

وأما الكلمات الأخر الباقيات لمن يروم دراسة جديدة فى هذا الكتاب ، فمن أهمها وأولاها" شرح شواهده شرحاً بلاغيا" ، وهى أكثر مـــن خمســـمائة شاهد من القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ والتابعين ، وكلام العرب والأعراب ، والشعر والرسائل ، وهى مـــن روائـــع الشواهد اصطفاها ابن المعتز بعناية ، فخلدت من بعده ، وطار ذكرها فى الآفاق ، وشرقت وغربت فى دواوين العلم . وقد تولى شيخنا الدكتور محمد عبد المنعـــم خفاجى شرح كثير من غوامض ألفاظها ، وخرجها ـ إلا قليلا ـ تخريجا وافيـــا دقيقا ، ولكن هذا شئ ، والشرح البلاغى للشواهد شئ آخر ، لا يزال دينـلًفى أعناق الباحثين ، للكشف عما انطوت عليه هذه الشواهد من أسرار ، وبيـــان وجه الاستشهاد فى كل شاهد ؛ لأن ابن المعتز ساق كتابه لأهل زمانه ، وهـــم يفهمون عنه مراميه دون حاجة إلى إيضاح أو بيان ، أما الآن ـ وقـــد بَعُـــدَت الشُّقة ـ فإن كثيراً من أسرار هذه الشواهد محجوبة ، لا يصل إليها إلا من شـــقَّ عنها ونَقَّب ، وقد غَمُضَ وجه الاستشهاد فى بعـــض الشـــواهد حـــتى علـــى المتخصصين فى هذا الفن ، فكيف بالمبتدئين ؟

وإنى أسال الله أن يهيئ العاجز فى قابل أيامه لهذا الأمر ، أو يهيئ له مـــن هو أصلح له ، والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله على الحبيب الشفيع ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

دسوق فى صباح الأربعاء كتبه

٤ شوال ١٤٢٢ هـــ/ ١٩ ديسمبر ٢٠٠١ م سلامه داود

# كتاب البديع لابن المعتز

## ( ٢٤٧ - ٢٩٦ هـ )

ابن المعتز :

"عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكـــل بن المعتصـــم بـــن الرشـــيد العباسى ، أبو العباس : الشاعر المبدع ، خليفة يوم وليلة ، ولـــد فى بغـــداد ، وأولع بالأدب ، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم ، وصنف كتبا منها "الزهر والرياض" و "البديع - ط" و "الآداب" و "الجامع فى الغناء" و "أشـــعار الملوك" و "طبقات الشعراء - ط" ، وجاءته النكبة من حيث يسعد الناس : آلت الخلافة فى أيامه إلى المقتدر العباسى ، واستصغره القواد فخلعوه . وأقبلوا علـــى صاحب الترجمة ، فلقبوه "المرتضى بالله" ، وبايعوه بالخلافة ، فأقام يوما وليلـــة ، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه ، وعاد المقتدر ، فقبض عليـــه وســـلمه إلى خادم له اســـمـــه مؤنس ، فخنقه ، وللشعراء مراث كثيـــرة فيه . وله "ديوان شعر - ط" فى جزأين .

ومما كتب فى سيرته "ابن المعتز وتراثه فى الأدب -ط" لمحمد خفـــاجى ، و"عبد الله بن المعتز ، أدبه وعلمه - ط" لعبد العزيز سيد الأهل" [1] .

---

(1) الأعلام للزركلى : ١١٨/٤ ، ١١٩ وذكر من مصادر ترجمته : الأغانى ط/ دار الكتـــب ٣٧٤/١٠ ومعاهد التنصيص ٣٨/٢ وابن خلكان ٢٥٨/١ وثمار القلوب ١٥٠ وتاريخ بغداد ٩٥/١٠ وأشـــعار أولاد الخلفاء ١٠٧-٢٩٦ وفيه كثير من شعره ونماذج من نثره ، وفوات الوفيات ٢٤١/١ ومفتـــاح السعادة ١٩٩/١ . أقول : وترجم له ابن النديم فى الفهرست ص ١٦٣ ، وكتب عنه حديثا د. أحمـــد كمال زكى ضمن سلسلة أعلام العرب "ابن المعتز العباسى" الكتاب رقم "٣٦" .

## أولاً : [مع تحقيق كتاب البديع وشرحه]

كتاب عتيق قديم ، عمره إلى الآن ١١٤٨ عاماً [ألف ومائـــة وثمانيـــة وأربعون عاماً هجرياً] ، خطه ابن المعتز بيمينه سنة ٢٧٤ هـــ ، قال : (وألفتـــه سنة أربع وسبعين ومائتين) [١] ، ألفه وهو ابن سبع وعشرين سنة ، فى فتوتـــه وشرخ شبابه ، فأُخِذَ عنه ، ونُسِخَ منه ، قال : (وأول من نسخة منى على بـــن هارون بن يحيى بن أبي المنصور المُنَجِّم) [٢] ، ثم انقطع ذكر من نسخه منه بعـــد على بن هارون ، وانقطع ذكر من نسخه من على بن هارون ، لا نجد لذلـــك خبرا ، كما لا ندرى إذا كانت النسخة التى بين أيدينا الآن = نسخة المستشرق الروسى كراتشقوفسكى ، وهى النسخة الوحيدة التى نُشِرت عن أصل مخطـوط للكتاب [٣] = مما نُسِخ من ابن المعتز ، أو هى نسخة على بن هارون ، أو هـــى مما نُسِخ من على ، أو مما نُسِخ من غيره من الآخذين عن أصل ابـــن المعـــتز ؛

---

(١) كتاب البديع لابن المعتز ص ٥٨ نشره وعلق عليه اغناطيوس كراتشقوفسكى عضو أكاديمية العلـوم فى لينينغراد المتوفى سنة ١٩٥١ م ط/ دار المسيرة ط/ ثالثة ١٤٠٢ هـــ / ١٩٨٢ م .

(٢) على بن يحيى بن أبي منصور أبو الحسن المنجم (٢٠١-٢٧٥ هـــ) : نديم المتوكل العباسى ، خُصَّ بـــه وعن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد ، يفضون إليه بأسرارهم ويأمنونه على أخبارهم .. وكـــان راويـــة للأشعار والأخبار ، شاعراً محسناً ، توفى بسامراء ، ورثاه عبد الله بن المعتز ، له كتـــب منـــها "أخبـــار إسحاق بن إبراهيم الموصلى" وكتاب الشعراء القدماء الإسلاميين "الأعلام ٣١/٥ بتصرف" .

(٣) لشيخنا العلامة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى نشرة لكتاب البديع لابن المعتز لم تقم علـــى أصـــل مخطوط للكتاب ، بحيث تكون نسخة ثانية غير نسخة كراتشقوفسكى ، بل اعتمد الشيخ فيـــها نشـــرة المستشرق المذكور ، مستدركا عليه بعض الأغاليط ، وقد أحسن شيخنا حين سمى نشرته "شرح البديـــع لابن المعتز" ، وسيأتيك نبأ هذه النشرة بعد حين ، المهم أن نشرة المستشرق تبقى هى النسخة الوحيـــدة عن أصل مخطوط للكتاب ، وذكر المستشرق فى كتابه "علم البديع والبلاغة عنـــد العـــرب" ص ٤٨ - إعداد / محمد الحجيرى ط . دار الكلمة للنشر ١٩٨١ م - أن فى هذه المخطوطـــة نقصـــا ، ولم يبيِّـــن مقداره .

ذلك كلّه إلى المستشرق الروسى كراتشقوفسكى ، الذى أبهم أمر ذلك كلـــه حين نشر مقدمته لكتاب البديع باللغة الإنجليزية فى نحو إحدى وخمسين صفحـــة تقريبا [1] ، ولا زلت ألتمس ترجمتها ممن أثق فى ترجمته ، لعل فيها خـــبرا عـــن مخطوطة هذا الكتاب العتيق ، تلك المخطوطة الفريدة "فى مكتبة الاســـكوريال بمدريد برقم ٣٢٨ آداب .. وهى النسخة الوحيدة الموجودة من الكتـــاب فى جميع مكتبات العالم" [2] .

---

(1) وقف الدكتور أحمد موسى على ترجمة هذه المقدمة ولم يثبتها فى رسالته القيمة "الصبغ البديعى فى اللغـــة العربية" قال : (وقد وقفت على ترجمتها فلم أر فيها ما يستحق الإثبات هنا) ص ١٢٩ نشر دار الكـــاتب العربى ١٣٨٨ هـــ/١٩٦٩ م ، ولخص الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ما أورده كراتشوفســـكى فى الصفحات ١–٥ من مقدمته فقال : (بَحَث "كراتشقوفسكى" فى المقدمة التى كتبها لكتاب البديع باللغـــة الإنجليزية مسألتين :

١– احتمال التأثير الأجنبى على نظرية الشعر العربى .

٢– أسبقية ابن المعتز أول من ترك فى هذا الميدان بحوثا منهجية ، وقد ذكر أن له بحوثا منظمة أخرى حـــول احتمال وجود أى تأثير أجنبى فى نظريات الشعر العربى وعلى الأخص تأثير أرسطو .

- وبسبيل الإجابة عن هذين السؤالين تطور الموضوع إلى بحث فى نقطتين أساسيتين :

١– الدور الذى قام به كتاب أرسطو فى فن الشعر .

٢– البحث عن مصادر تمكنه من إصدار كتاب ابن المعتز .

- وقد عالج النقطة الأولى ببحث : مقالات المعتزلة وتأثيرها فى القرن التاسع علـــى الإنتـــاج الأدبى والمؤثرات الهندية والفارسية فى الشعر العربى .
- وقد وصل إلى نتيجة سلبية من ناحية تأثير كتاب الشعر لأرسطو على نظريات الشعر العـــربى ، وهو يشير إلى قلة معلوماته فى البحوث الإفريقية ، وإلى أن رأيه فى نفى تأثير أرسطو علـــى نظريـــات الشعر العربى يطابق رأى بعض النقاد الغربيين فى البحث .
- وذلك ملخص ما أورده كراتشقوفسكى فى الصفحات ١–٥ من مقدمته لكتاب البديع) شـــرح كتاب البديع [د . محمد عبد المنعم خفاجى : ص ٦٠٩] .

(2) نقلا عن شرح كتاب البديع د . خفاجى ص ٥٩٦ .

وقد تواتر الخبر عن هذه المخطوطة أنها النسخة الوحيدة وأجـــزم أنهـــا ليست نسخة وحيدة ، وإنما لها أخت أو أخوات ، يدل علـــى ذلـــك صنيـــع المستشرق كراتشقوفسكى ، فى حواشى تعليقاته التى جمعها جملة بعد نهاية مـــتن الكتاب كله ، ثم وزعها على صفحات الكتاب وسطوره فى كل صفحة بنظـــام دقيق محكم ، فقد رأيت المحقق فى هذه التعليقات يطيل ذكر اختـــلاف النســـخ المخطوطة التى اعتمد عليها ، والذى استطعت أن أميزه منها ثلاث نسخ :

النسخة الأولى : رمز لها المحقق بالحرف E ويبدو أنها نســـخة كثـــيرة التصحيف والتحريف ؛ ولذا قلما يثبت نصها فى المتن ؛ وكثيرا ما يخالفها مثبتـــا ما فى بقية النسخ .

النسخة الثانية : رمز لها بالرمز mwz وهى –فيما أرجح– النســـخة الأم التى اعتمد عليها فى نشر الكتاب .

النسخة الثالثة : رمز لها بالرمز om وهى جيدة معتمدة عنده .

وهذه نماذج من تعليقاته تدل على أنه اعتمد فى التحقيق أكثر من نسخة :

١ – (المتن) قال ابن المعتز [٩] ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شُعِفَ به حتى [١٠] غَلَبَ عليه وتَفَرَّع فيه وأكثرَ منه فأحس فى بعـــض ذلـــك [١١] وأساء فى بعض ، وتلك عقبى الإفراط ، وثمرة الإسراف ، [١٢] وإنما كـــان يقول الشاعر من هذا الفن البيت أو البيتين فى [١٣] القصيدة ، وربما قرئـــت من شعر أحدهم قصائد من غير [١٤] أن يوجد فيها بيت بديع] ص ١ .

فهذا المتن فى ستة أسطر فى النشرة المطبوعة وضع المستشرق فى تعليقاته أمام كل سطر رقمه (١) وبـــجوار الرقم ما فى السطر من اختلاف النســـخ ، هكذا :

التعليق : ص ٩٤ (١)

g : [حبيب بن أوس mwz. ] .[om : الطائى] [E. الطاى]

وأحسن .mwz فأحسن ] . تفرع mwz.om : 10

وثمره .E وثمرة : 11

الشاعر يقول .mwz [قال وإنما يقول الشاعر .mwz [ وإنما : 12

[فى قصائد .mwz [من قرئ .mwz قربت .E [قرنت : 13

قصايد .E

بيت واحد .mwz [بيت : 14

٢- المتن : [وقد كان بعض العلماء يشبه الطائى

فى البديع بصالح بن عبد القدوس فى الأمثال] ص ١ س ١٦

التعليق : ص 94

[بصالح] . الطاى .E [الطائى] . بعضهم mwz [بعض العلماء : 16

بصلح .E

٣- المتن : [وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وذكر الملوك فقال إن الملوك إذا ملك أحدهم زهَّده الله فى ماله ، ورغبه فى مال غيره ، واشرب قلبـــه الإشفاق ، وهو يَحْسُد على القليل ويتسخَّط الكثـــير] ص ٤ س ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

فيما فى يدى .BY [فى مال غيره] فيما عنده .By [فى ماله : 13

ويسخط ..... ويتشحَّط .E [ويتسخَّط : 14

---

(١) الأرقام بين المعقوفتين [ ] هى أرقام السطور فى كتاب البديع من صنع المستشرق .

وبهذا يظهر أن المحقق اعتمد على نسختين من المخطوطة ، إلا فى السطر الأخير من التعليق على المتن الثالث فإنه اعتمد على ثـــلاث نســـخ : فى الأولى (يتسخَّط) وفى الثانية (يتشحط) وفى الثالثة (يسخط) .

ومن أجل هذا جزمت جزما بأن مخطوطة الكتـــاب الـــتى فى مكتبـــة الاسكوريال بمدريد برقم ٣٢٨ آداب ليست هى النسخة الوحيدة وإنمـــا لهـــا نسخة أخرى على الأقل [كما تبين فى التعليقين الأول والثـــانى] أو نســـختان أخريان [كما تبين فى التعليق الثالث] .

## كراتشقوفسكى ونشرته :

اغناطيوس كراتشقوفسكى [1] ، (١٣٠٠-١٣٧٠ هـــ) (١٨٣٣-١٩٥١م) [2] ، مستشرق روسى ، عضو أكاديمية العلوم فى لينينغراد ، "يعـــد مؤسس مدرسة الاستشراق السوفيتية ، بل – كما يقول توفيق الحكيم – ربمـــا كان عميد المستشرقين فى العالم المعاصر [3] .. كرس ما يقرب من خمسة وأربعين عاماً من حياته للدراسات العربية ، تتلمذ خلالها علـــى يديـــه أجيـــال مـــن المستشرقين كما قدم أكثر من ٤٥٠ بحثاً علمياً تنـــاولت فروعـــاً عـــدة مـــن الدراسات العربية ، فقد قدم دراسات فى الأدب العربى القـــديم والحديـــث ،

---

(١) هكذا رُسِمَ (كراتشقوفسكى) بالقاف بعد الشين كما على غلاف نشرته لكتـــاب البديـــع ، ورســـم بالكاف بدل القاف فى كتابه "حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى" ترجمة السيدة الفلســـطينية المقيمـــة فى روسيا كلثوم عودة ، درست اللغة العربية فى روسيا واتصلت بالمستشـــرقين هنـــاك ، وكـــان منـــهم كراتشقوفسكى [ينظر ص ٦ من الكتاب نشر الهيئة العامة لقصور الثقافـــة سلســـلة ذاكـــرة الكتابـــة رقم (١٤) ] .

(٢) عن تقديم السيدة مكارم الغمرى لترجمة بحث البديع العربـــى فـــى القرن التاسع " لكراتشقوفســـكى" ص ٩٣ مجلة فصول الجزء الأول أكتوبر /نوفمبر/ ديسمبر ١٩٨٥ م .

(٣) صفحات من التاريخ الأدبى لتوفيق الحكيم ص ٥٦ دار المعارف بمصر ١٩٥٧ [عن المصدر السابق ] .

ودراسات فى فقه اللغة العربية وبلاغتها ، كما قام بدراسة كثير من المخطوطات العربية ، وأرخ للاستشراق ، فضلا عن دراساته المقارنة فى العلاقات الثقافيـــة والحضارية بين شعوب الاتحاد السوفيتى والشرق العربى)[1] .

قال الزركلى :

إغناطيوس جوليانوفتش كراتشقوفسكى : مستشرق روســـى ، مـــن كبارهم ، ولد فى فيلنا عاصمة ليتوانية القديمة ، وانتقل أبـــوه إلى طاشـــقند ، وعمره سنتان ، فكان أول ما تفتح عليه بصره المساجد والأسواق الشـــرقية ، وتكلم اللغة الأزبكية وهو طفل ، وعاد مع أبيه إلى فيلنا سنة ١٨٨٨ فتعلم بهـــا ثم فى معهد اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج (لينينغراد) حيث عكـــف علـــى دراسة العربية ، والفارسية والتركية والتتارية والعبرية والحبشية القديمة ، وأرسل فى بعثة علمية إلى الشرق العربى فأقام عـــامين (١٩٠٨-١٩١٠) فى ســـورية ولبنان وفلسطين ومصر ، ولما عاد إلى بلاده عين مديرا لمكتبة فـــرع اللغـــات الشرقية فى كلية لينينغراد ، فمدرسا للعربية فى الكلية ، وجعل مـــن أعضـــاء أكاديمية العلوم الروسية فى قسم التاريخ واللغات سنة ١٩٢١ ، وانتخبه المجمـع العلمى العربى فى دمشق عضوا مراسلا سنة ١٩٢٣ ، وتوفى فى لينينغراد ، مـــن آثاره بالعربية "ديوان الوأواء الدمشقى" نشره مـــع ترجمـــة لـــه إلى الروسية ، و"البديع" لابن المعتز ، وكتب مقالات ورسائل بالعربية أورد صاحب معجـــم المطبوعات أسماءها وكتب بالروسية عن "خلافة المهدى العباســـى" و "تـــاريخ آداب اللغة العربية ابتداء من نهضتها الأخيرة فى القرن التاسع عشر" وهو يقول فى ترجمة لنفسه بقلمه سنة ١٩٢٧ : "أما مؤلفاتى العلمية التى بدأت بكتابتـــها

---

(١) عن تقديم السيدة مكارم الغمرى : ص ٩٣ .

وطبعها من سنة ١٩٠٤ فجلها إن لم أقل كلها فى آداب العرب ، مـــن بحـــث وترجمة وشرح وانتقاد وكتاب ومقالة ومحاضرة وملاحظة ، وعددها يربو علـــى المائتين ، وقد طبع فهرستها سنة ١٩٢١" ) [1] .

أما نشرته لكتاب البديع لابن المعتز فهى إلى الآن النشرة الوحيدة عـــن أصل مخطوط كما سبق ، وقد قسمها خمسة أقسام :

الأول : متن الكتاب ، ويقع فى ٧٧ صفحة [2] من ص١ إلى ص ٧٧ .

والثانى : تعليقات على المتن يذكر فيها اختلاف النسخ ، ويقع فى ٣٤ صفحة ، من ص ٩٤ إلى ص ١٢٧ .

والثالث : إيضاح بعض الألفاظ ببيان أصل اشـــتقاقها ومفردهـــا إن كانت جمعا وجمعها إن كانت مفردا والتعرض لمعناها على قلة . ويقع هذا القسم فى ١٥ صفحة من ص ١٢٨ إلى ص ١٤٢ .

والرابع : مقدمة المستشرق باللغة الإنجليزية فى آخر الكتاب ويقـــع فى ٣١ صفحة ذوات ترقيم خاص من ص١ إلى ص٣١ .

والخامس : ثبتان أحدهما لمصادر التحقيـــق ويقـــع فى ١١ صفحـــة وثانيهما لمحتوى الكتاب .

كما صنع المستشرق ثلاثة فـــهارس ، الأول : لأسمـــــاء الأشـــخاص والقبائل ، والثانى للقوافى ، والثالث للاصطلاحات البلاغية .

---

(١) الأعلام للزركلى ٣٣٥/١ ، ٣٣٦ .

(٢) وضع المستشرق على هوامش الصفحات ما يقابلها فى الأصل المخطوط ، بدأهـــا فى الصفحـــة الأولى برمز IV وختمها فى ص ٧٥ برمز 21V وهذا يعنى أن المخطوطة تقع فى إحدى وعشرين ورقـــة ، أى ٤٢ صفحة .

وللمستشرق يد لا تنكر بنشره هذا الكتاب الذى يقع فى الصدارة مـن طور التأليف البلاغى المستقل ، فعلى نشرته اعتمد كل من دون عن ابن المعـتز وآرائه البلاغية فى الثلثين الأخيرين من القرن العشرين [1] .

وقد عنى كراتشكوفسكى بالكتاب على قدر طاقته ، وأجـاد ترتيـب فِقَره وعَدَّ شواهدِه الشعرية التى بلغت ٣١٢ شاهدا [2] ، مع ضبطها بالشكل .

ولهذه النشرة طريقة فى رسم بعض الكلمـات (الإمـلاء) أرجـح أن المستشرق رسمها كما هى فى الأصل المخطوط ، من ذلك أنه كتب (القُـرَان) بدون همز [3] .

ورسم "الحياة" هكذا : "الحيوة" بالواو [4] ورسم العدد (ثلاثة) هكذا : "ثلثه" بلا ألف [5] ، فأما رسم "القُرَان" بلا همز ، فقد كان الإمام الشـافعى – وهو حجة فى اللغة ينطقها ويرسمها على هذا الوجه ، وكذا أبو عمرو بن العلاء ، وبها قرأ ابن عباس عن أُبَىٍّ عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقرأ بها ابن كثـير ، وذكر الشيخ أحمد شاكر –رحمه الله– أن قراءة ابن كثير هى قراءة الشـافعى ، وكان يود لو ضبط آيات القرآن الكريم التى فى كتاب "الرسالة" كلـها علـى

---

(1) * طبع عام ١٩٣٥ بمطبعة استيفن أوستـن بمدينة هرت فورد إشراف لجنة تذكار جب الإنجليزيـة * [ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان ص ٥٩٦] .

(2) وعند د . محمد عبد المنعم خفاجى ٣١١ شاهداً فقط ، وعَدُّ المستشرق أضبط ، لأن شيخنا سـها فى ص ٦٦٦ فى ترقيم الشواهد ، عند بيت الطائى :

إذا ذَاقَهـا –وهى الحَياةُ– رأيتَه يُقَطِّبُ تقطيـبَ المُقَدَّمِ للقتلِ

• فلم يعط هذا البيت رقما ، وهو الشاهد رقم ١٣٨ فى نشرة المستشرق .

(3) ينظر كتاب البديع : ص ١٠ سطر ٢ .

(4) ينظر كتاب البديع : ص ٣٩ سطر ٧ .

(5) ينظر كتاب البديع : ص ٤٧ سطر ١٥ ، و ص ٦٤ سطر ١١ .

قراءة ابن كثير [1] ، وإذا صح ما نقله المستشرق عن المخطوطة فإنه يثبـــت أن قراءة ابن كثير هى قراءة ابن المعتز أيضا .

وأما رسم "الحيوة" بالواو بدل الألف ، ورسم "ثلثة" بلا ألف ، فـــهو رسم المصحف ، فلم ترد فيه "الحياة" بالألف ، وإنما هى حيث وردت بـــالواو فوقها ألف مد صغيرة ، وكذا (ثلاث وثلاثة) لم تردا بالألف ، ورسمت الألـــف صغيرة قبل الثاء المثلثة الثانية ، هكذا فى جميع مواضع لفظى "الحياة" و "ثلاثـــة" فى القرآن الكريـــم [2] ، فلعل فـــى إيثار رســـمها كما ورد فى كتاب البديـــع – إذا صح النقل عن المخطوطة – اتباعا للخط المصحفى ، وإن أثـــار ذلـــك إشكالا لأن اللفظين السابقين لم يرد رسمهما فى الكتاب فى آى الذكر الحكيـــم ، وإنما ورد الأول فى بيت شعر ، والثانى فى نسق كلام ابن المعتز وما يورده مـــن شواهد نثرية ، ولو أن الكتاب التزم فى آى الذكر الحكيم رسم المصحف لكـان لتأسيه به فى هاتين اللفظتين مدخل ، ولكنه لم يلتزم الرســـم المصحفـــى فى آى القرآن الكريم ، فكيف يلتزمه فيما سواها ؟

وكان كراتشكوفسكى حفيا بدرس "البديع" نشر دراسة موجزة عنـــه بعنوان البديع فى القرن التاسع "أى الميلادى" ، قـــامت بترجمتـــها إلى العربيـــة السيدة / مكارم الغمرى ، نفى فيه أثر فكر أرسطو فى نشأة فن البديع العـــربى ، وعرض لثلاثة أعلام كانوا –عنده– نـــماذج لتاريخ البديع فـــى القرن التاسع (= الثالث الهجرى) ، وهم : الجاحظ ، وابن المعتز ، وقدامة بن جعفر .

---

(1) ينظر حاشية تحقيق الشيخ أحمد شاكر لكتاب الرسالة للإمام الشافعى ص ١٤ .

(2) ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : ( ح ى ي ) و ( ث ل ث ) .

**ومما أثاره عن كتاب ابن المعتز :**

١- "أن معايير تصنيفه لا زالت غير مفهومة ، وكذلك أسس مقابلتـــه البديع بالجمال" [١] ، يقصد بمعايير تصنيفه" ، الأسس التى اختار عليها فنـــون البديع الخمسة [الاستعارة-التجنيس-المطابقة-رد الأعجاز علـــى الصـــدور-المذهب الكلامى] فلماذا قصر اختياره على هذه الخمسة ؟

وللدكتور شوقى ضيف جواب سديد عن هذا السؤال قال : "ونعتقـــد اعتقاداً أن ابن المعتز إنما اكتفى بفنون خمسة من محاسن الكلام ، رأى أن يخصـــها باسم البديع ؛ لأنها فعلاً الفنون التى كانت موضع أخـــذ ورد بـــين أصحـــاب البلاغة العربية الخالصة وبين طوائف المتفلسفة ومن ينـــزعون نحـــو التجديـــد المسرف ، واقرأ فى النقد الذى وجه إلى أبى تمام والذى جمع أطرافه الآمـــدى فى كتابه "الموازنة بين الطائيين" فستراه يدور على الجناس والطبـــاق والاســـتعارة المتعمقة وغموض المعانى ودقتها مما سماه ابن المعتز باسم المذهب الكلامى نـــاقلاً للتسمية عن الجاحظ ، أما رد الأعجاز على ما تقدمها فقد جاء به رمزاً لعنايـــة بعض المحدثين بموسيقاهم الحسية" [٢] .

وأما قول المستشرق إن أسس مقابلة ابن المعتز البديع بالجمال لا زالـــت غير مفهومة ، فهو يقصد بالبديع الفنون الخمسة السابقة ، وبالجمـــال الفنـــون الثلاثة عشر الأخرى [٣] التى أضافها ابن المعتز إلى كتابه ، وسيأتى تفصيلـــها ، فإضافته إياها إلى هذا الكتاب -عند المستشرق- كانت لا تزال غير مفهومـــة ،

---

(١) البديع فى القرن التاسع لكراتشقوفسكى : ص ٩٥ بتصرف .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ : ص ٦٩، ٧٠ .

(٣) هى عند المستشرق اثنا عشر فنا ذكرها ابن المعتز فى اثنى عشر فصلا [ينظر البديع العـــربى فى القـــرن التاسع لكراتشكوفسكى ص ٩٥] وعدها شيخنا الدكتور خفاجى فى شرحه ثلاثة عشر فناً بجعله (لـــزوم ما لا يلزم) فنا مفردا وقد أصاب [ينظر ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان ص ٧١٢] .

ولا أدرى كيف لم يفهمها المستشرق وقد صرح ابن المعتز تصريحا بداعية إضافته هذه الفنون الثلاثة عشر إلى كتابه فقال بعد فراغه من الحديث عن فنون البديع الخمسة : (ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ، ومحاسنها كثـــيرة ، لا ينبغى للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضـــها عـــن علمـــه وذكره ، وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلـــم النـــاظر أنـــا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا [1] من غير جهل بمحاسن الكـــلام ولا ضيق فى المعرفة ) [2] .

٢- عقد موازنة بين "البديع" عند الثلاثة الأعلام : الجـاحظ (ت ٢٥٥ هـــ) وابن المعتز (ت ٢٩٦ هـــ) وقدامة ( ٣٣٧ هـــ) ، رجح فيها كفة ابـــن المعتز "عاشق الأسلوب الشعرى" [3] على عمل الجاحظ مع أنه "موسوعى ممتع" [4] ، وعمل قدامة "تلميذ الفلاسفة اليونانيين" [5] كما أطلق عليه : قال فى ذيل بحثه : "وهنا ينتهى بحثنا . وقد عرضنا لثلاثة نماذج لتاريخ البديع العـــربى فى القـــرن التاسع : الجاحظ ، وابن المعتز ، وقدامة ، وتختلف مؤلفاتهم ، ولا يقل اختلافـــا عن ذلك مصيرهم الأدبى : ويتقدم عاشق الأســـلوب الشـــعرى ، والشـــاعر المنغمس فى جمال الحديث ، الذى يضع الشكل فوق المضمـــون ، إلى مســـتوى سابق للعمل الموسوعى الممتع ، الذى يحاول أن يحيط بالعالم كله ، دون أن يملك

---

(١) فى المطبوعة "اختبارا" بالباء الموحدة ، وصوابه بالياء المثناة التحتية ، أى اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة عن اختيار دقيق ، لا أن الجهل بغيرها اضطرنا إلى الاقتصار عليها ، ووجدت شيخنا د . "خفاجى" هدى إلى ذلـــك بالتصويب من قبل ، فهو أهل للثناء [ينظر شرحه ص ٦٨٩] .

(٢) كتاب البديع : ص ٥٨ ولهذه الفقرة تتمة نافعة جدا فى الكشف عن اختلاف نسخ المخطوطة الـــتى نشـــرها المستشرق ، وأنها نسختان أو نسخ وليست نسخة واحدة ، ففى المطبوعة : ( فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصـــر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل) وفى تعليق المستشرق ص ١١٧ : (ومن أحب أن يقتدى بى ويقتصر على مـــا اخترعناه فليفعل) وفى المطبوعة : (ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ولم يأت غير رأينا فلـــه اختياره) وفى التعليق : (ورأى غير رأينا) .

(٣) البديع العربى فى القرن التاسع : ص ١٨ .

(٤) السابق .

(٥) السابق .

لا الوسيلة و"الرغبة فى الدراسة المنظمة للتفصيلات ، ويليه الرجل الـــــجاف بالنسبة للعرب ، وتلميذ الفلاسفة اليونانيين المتحذلق غاية التحذلق ، الذى ينظر بشئ من الترفع إلى زملائه الذين لا يعرفون هذه الحكمة الغربية وليس مـــن العسير التكهن بأن السلالة قد حكمت بقصب السبق للشاعر الأمـــير ، فقـــد أصبح مؤسساً للعلم الجديد" (١) .

---

(١) السابق ، وغير خاف ما انطوى عليه كلام المستشرق من أحكام نزلت على الأعلاء كالقضـــاء المبرم والشر المستطير فابن المعتز (يضع الشكل فوق المضمون) وهذا أهون الشر !! لم هو لم ينل قصـــب السبق ولم يصبح مؤسسا للعلم الجديد [علم البديع] – كما ذكر المستشرق– إلا بسلالته ، أى بشـــرف نسبه ، وبأنه "خليفة" ابن "خليفة" وهذا رمى صريح فى وجوه الأمة وعلمائها وطعن فى حكومتهم لابـــن المعتز الشاعر الأمير بأنها بنيت على محض "سلالته" و "إمارته" !! وما كان هذا من المستشـــرق جموحا سبق به القلم ، ولكنه داء ردده فى بحثه ، داء الطعن فى حكم العلماء وذوق الأمة . فها هو ذا يرى أنـــه "يمكن النظر إلى كتاب قدامة من جهة خطته بوصفه دراسة كاملة عن البديع ، وهو يفوق فى ثرائه عمـــل ابن المعتز كثيرا ، وكذلك يختلف "نقد الشعر" بصورة جوهرية عن الأعمال الأخرى فى كـــل الجوانـــب المتبقية ، فالأمثلة تحلل دائما بعناية ، ولا يكدس بعضها على بعض كما هو الشأن عند الجـــاحظ وابـــن المعتز ، وتتطور الأفكار دائما وفقا لترتيب وبصيرة ) [المصدر السابق ص ٩٧ ، ٩٨] فجهد "قدامـــة" فى "البديع" يفوق فى ثرائه عمل ابن المعتز كثيرا [اذكر هذا جيدا ، ثم اذكر معه تفضيله فى ذيل بحثه عمـــل ابن المعتز" عاشق الأسلوب الشعرى ، والشاعر المنغمس فى جمال الحديث " على عمل قدامة والجـــاحظ ، وما فى ذلك من تناقض بين واضطراب واضح ] ودع أمر التناقض هذا ، وانظر إلى قوله بعـــد مفســـرا لماذا لم يكن لعمل قدامة أثره مثل عمل الجاحظ وابن المعتز ، قال : (إن السبب الرئيســـى يكمـــن وراء كراهية الدوائر الأدبية لكل المناهج التى كانت تبرز تحت تأثير فلسفة غريبة ومنطق غريـــب . وعمـــل قدامة عند وضعه إلى جوار أعمال ابن المعتز والجاحظ يثير انطباعا غير عربى بعض الشئ ؛ وهذا يفســـر لماذا لم يكن له أى تأثيـــر مثل سابقيـــه ، برغم محاسنه الكبيرة) [المصدر السابق ص ٩٨] فعمل قدامـــة –عنده– يفوق عمل ابن المعتز إلا أن عمل قدامة لما كان ذا طابع غير عربى حمل ذكـــره عنـــد العـــرب ومحى تأثيره لأجل طابعه الغربى ، وهذا اتهام صريح لعلمائنا بأنهم يفضلون الطابع العـــربى فى التـــأليف العلمى على الطابع غير العربى حتى وإن كان الأخير أفضل وأكثر تفوقا ، استسلاما لعصبية المقيتـــة !! وهؤلاء العلماء الذين تحيفهم المستشرق هم الذين عرفوا لقدامة منـــزلته وأثنوا عليه ، قال ابن النـــديم : "وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة ، وممن يشار إليهم فى علم المنطـــق" [الفهرســـت ١٨٢] =

ولكل من الأعلام الثلاثة دور فى تاريخ علم البديـــع ، نـــثر الجـــاحظ شذورا منه فتحدث عن (أصحاب البديع) [١] والشعراء الذين عنـــوا بـــه [٢] ، وقصر البديع على العرب) [٣] ، كما خص "السجع" بحديث مفرد ، (عـــرض نماذج منه) [٤] ، واستعماله فى المفاخرة والمنافرة [٥] ، وما أثير من جدل حـــول النهى عنه [٦] ) .

---

=ولو أن كتاب قدامة لم يشغل الناس ، ولو أنه مُحِي تأثيرُه عند علماء العربية ، لما وجدنا له هذه الضجـــة الكبرى ، فإنه نبه كثيرا من الأقلام ، وبعثها من مرقدها ، فانبرى للطعن عليه الآمدى صاحب الموازنـــة فألف كتابا سماه ، "تبيين غلط قدامة بن جعفر فى نقد الشعر" ، وصنع عبد اللطيف البغـــدادى كتـــابين للدفاع عن قدامة . أحدهما دعاه "تكملة الصناعة فى شرح نقد قدامة " ، والآخر "كشف الظُّلامة عـــن قدامة" [الصبغ البديعى ص ١٥٦ ، ١٥٧ وأخذ أسماء هذه الكتب عن بغية الوعاة للسيوطى وكشـــف الظنون لحاج خليفة] . وقدامة كان حظه من تغول المستشرق أنه "الرجل الجـــاف بالنســـبة للعـــرب ، وتلميذ الفلاسفة اليونانيين ، المتحذلق غاية التحذلق ، الذى ينظر بشئ من الترفع إلى زملائـــه الذيـــن لا يعرفون هذه الحكمة الغربية" وفى هذا ما فيه من القدح فى العرب الذين عدوا قدامة رجلا "جافا" وقـــدح فى قدامة "المتحذلق غاية التحذلق .. المترفع على زملائه .." ولا تجتمع النقيصتان فيمن وجد ريح العلـــم . والجاحظ وهو صاحب العمل "الموسوعى الممتع" ، الذى تغوله المستشرق تغولا حين وصفه بأنه "الـــذى يحاول أن يحيط بالعالم كله ، دون أن يملك لا الوسيلة ، ولا الرغبة فى الدراسة المنظمة للتفصيلات" فـــأين ادعى الجاحظ أنه [يحاول أن يحيط بالعالم كله] ؟!! وهل ترد هذه المحاولة فى عقل عاقل ؟ .

(١) ينظر البيان والتبيين ٥١/١ .

(٢) ينظر السابق ٥٦/٤ .

(٣) ينظر السابق ٥٥/٤ ، وفهرس البيان والبلاغة ضمن فهارس الأستاذ عبد الســـلام هـــارون للبيـــان والتبيين ١٠٦/٤ بتصرف .

(٤) ينظر البيان والتبيين ٢٨٤/١، ٢٩٧، ٤٠٨ .

(٥) ينظر السابق ٦/٣ .

(٦) ينظر السابق ٢٨٧/١-٢٩١ ، وفهرس المحقق ١٠٨/٤ بتصرف .

ثم جاء ابن المعتز فأفرد "البديع" بمؤلَّف مستقل ، فكـــان كتابـــه "أول كتاب أخرج للناس بهذا الاسم" [١] ، فهو رائد التدوين المستقل فى هذا العلـم ، وسيأتى ذكر منـــزلة كتابه وقيمته عن قريب .

ثم يجئ قدامة [٢] فيكون "ثانى اثنين أسهما فى إقامة صرح البديع الأول ، فقد عاصر ابن المعتز – وإن تأخر به الزمن قليلا" [٣] .

٣– نفى المستشرق –بعد درس ومراجعة– أن يكون لأرسطو أو للفكر اليونانى أثر ما فى (الأعمال العربية الخاصة بفن البديع ، فهذه الأعمال تختلـــف اختلافاً شديدا فى الأسلوب والروح عن أعمال الفيلسوف اليونانى) [٤] .

هذا ما خلص إليه مستشرق أنفق من عمره رَدَحاً طويلا فى الدراســات المقارنة بين الأدب العربى والثقافة الغربية ، ثم يجئ "عميد الأدب العربى" د . طه حسين فيقرر أن "البيان العربى" "كان فى جميع أطواره وثيق الصلـــة بالفلســفة اليونانية أولاً وبالبيان اليونانى أخيرا . وإذاً لا يكـــون أرســطو المعلـــم الأول للمسلمين فى الفلسفة وحدها ؛ ولكنه إلى جانب ذلك معلمهم الأول فى علـــم البيان" [٥] !!

---

(١) الصبغ البديعى : ص ١٢٩ .

(٢) قطع المستشرق أن قدامة كان يعرف كتاب "البديع" لابن المعتز ، مستدلا بأنه (يورد فى إحدى المـرات بعض استشهادات شعرية بالتعاقب نفسه الذى أوردها به ابن المعتز [البديع العربى فى القـــرن التاسـع ص ٩٨] .

(٣) الصبغ البديعى : ص ١٤٣ .

(٤) النقد العربى فى القرن التاسع : ص ٩٤ .

(٥) "البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر ص ٣١ بحث وضعه طه حسين بالفرنسية وترجمه إلى العربيـــة د . عبد الحميد العبادى ونُشِر تمهيدا لكتاب نقد النثر المنسوب خطأ لقدامة بن جعفر وهو لابن وهـــب : ط / لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

وهكذا قضى "العميد" فى "البيان العربى" كلّه قضاءه ، فالبيان العـــربى رَبِيبُ الفلسفة اليونانية "أولاً" والبيان اليونانى "أخيراً" ، ["أولاً" و "أخـيراً" !!] ولم يستثن من "البيان العربى" فناً ، ولا من عصوره وأطواره عصرا وطَورا ، ولا من رجالاته أحدا ، فما كان أجرأه على الحكم والقضاء !! وما كان أجرأه علـــى دعوى الإحاطة التامة "بالبيان العربى" و "البيان اليونانى" !! .. وهكذا عمَّـــت البلوى ، ونُسِبَ كلُّ شئ يكون عند العرب والمسلمين إلى اليونان وأرسطو !!

(شرح كتاب البديع لابن المعتز) :

هذا عنوان مؤلَّف من صنعة شيخنا العلامة الدكتور محمد عبد المنعـــم خفاجى نشره فى أوائل سنة ١٩٤٥ م ، خدم به كتاب ابن المعتز ، قال : "وقـد قمت بشرح هذا الكتاب والتعليق عليه وتصحيحه ، ونَشَرتُه عـــام ١٩٤٥ ، فكان ذلك إحياء لكتاب ابن المعتز ، ومساهمة كبيرة فى خدمة الثقافة البلاغيـة ، وسعيا لتداول أهم وأول مصدر أُلِّف فى البديع" [١] .

وبذل شيخنا جهداً مشكوراً فى تتبع شواهد الكتاب ، وبخاصة الشواهد الشعرية التى بلغت ٣١٢ شاهداً ، عدة أبياتها ٤٢٠ بيتاً ، فوق ما فيه من شرح النصوص النثرية ، وأكثر من مائتى ترجمة لأعلامه ، فضلاً عن تصحيح بعـــض الأخطاء الواقعة فى نشرة المستشرق [٢] .

ويقع متن كتاب ابن المعتز بتعليقات شيخنا عليـــه فى مائـــة وخمـــس صفحات من ص ٦١٠ إلى ص ٧١٤ ، وقدَّم شيخنا بين يدى المتن مقدمتـــين سماهما "فصلين" الفصل الأول : "البيان قبل ابن المعتز" ، استغرق إحدى وثلاثين

---

(١) ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٥٧٢ .

(٢) ينظر المصدر السابق : ٦٠٨ .

صفحة من ص ٥٦٥ إلى ص ٥٩٥ . والفصل الثانى : تمهيد لكتاب البديـــع ، يقع فى أربع عشرة صفحة .

وجهد شيخنا فى خدمة الكتاب وفك بعض مُعَمَّياته ومشكله مما يُعَـــضُّ عليه بالنواجذ ، ولا يستغنى عنه ، إلا أن الكتاب لا يزال بحاجـــة إلى خدمـــة أخرى تدرس شواهده البلاغية وتكشف ما انطوت عليه من أسرار وتفصح عـن وجه الاستشهاد فى كل مثال ؛ فإن ابن المعتز ساق كتابه لأهل زمانـــه ، وهـــم يفقهون عنه مراميه من شواهده دون أن يحوجوه إلى إيضاح لها أو تبيان ، لقـوة فطانتهم بمسالك البيان وفنونه ، وتمرسهم بسلوك شعبه ودروبه .

نعم ، لا يزال كتاب البديع لابن المعتز بحاجة إلى درس بلاغى جديـــد ، على الرغم من هذا الزَّخَم الذى نراه فى كثرة ما كُتِب عنـــه ، وعـــن دوره فى تطور البحث البلاغى . فهى كتابات –فى الغالب– متشابهة قديمها وجديدهـــا ، يسير الباحث فيها سير صاحبه ، ويعيش فى جلبابه ، حتى تكـــاد تكـــون – فى الغالب– صورا مكررة لأصل واحد .

إن شواهد الكتاب من القرآن الكريم والحديث الشريف والفِقَر المتعـة من كلام الصحابة والتابعين ومن بعدهم ومن كلام العرب والأعـــراب ، ممـــا يتجاوز الخمسمائة شاهدا ، كل ذلك فى حاجة إلى بحث وتنقيب ، فإن وجـــه الاستشهاد فيه قد يَغْمُضُ حتى على المتخصصين فى هذا الفن ، فكيف بالمبتدئين ؟

وكان مما رامه ابن المعتز لكتابه أن يكون مَعِيناً للأدب ، مُعِينـــاً علـــى تذوق حر الكلام ، آخذا بيد "المتأدبين" ، ولذا أكثر الشواهد وأتبـــع بعضـــها بعضا ، وزاد على فنون البديع الخمسة فنوناً أخرى من محاسن الكـــلام بلغـــت

ثلاثة عشر فناً ، وقال : "وأحببنا لذلك أن تَكثُر فوائدُ كتابنا للمتـــأدبين" [1] ، وقد كثرت فوائده حقاً ، ونفع المتأدبين ، بحسن اختياره لشواهده ، وغـــزارة اطلاعه وعمق ثقافته اللغوية . وهذه الكلمة الموجزة تدل على مـــا يجـــب أن يتحلى به العالم من حرص على نفع القارئ "المتأدب" وإتحافه بكثير من الفوائـــد التى ينالها ، والكتاب الجيد ما كثرت فوائده ، وعظمت منافعه .

وشيخنا الدكتور خفاجى –مع جلالة عمله– لم يكن معنياً بتحرير محـــل الاستشهاد فى كل مثال وبيان ما انطوى عليه هذا الشاهد أو ذاك من أســـرار ولطائف كانت وراء اختيار ابن المعتز ، فإن اختيار المرء قطعة من عقله ، ويبقـى "شرح كتاب البديع لابن المعتز" أمانة فى أعناق الأجيال ، وَفَّى شيخُنا الخفـــاجىُّ منها ما وَفَّى ، ولا تزال بقية تطلب الباقى .

---

(1) كتاب البديع : ص ٥٨ .

## ثانياً : دراسة فى كتاب البديع :

### ١- غرض الكتاب :

رمى ابن المعتز من كتابه غرضا ساميا حقيقا بالعناية ؛ يرجع فى جملته إلى ضرورة الدقة والتحرى فى الحكم بـــ "السَّبْقِ" إلى فن أو علم ، أو شئ من الفن أو العلم ؛ فإن هذا الحكم من الصعوبة بمكان ، ولا يُنال إلا بعد أشـــواط مـــن البحث والنظر ، والخطأ فيه خطأ فى نسبة العلم لغير أصحابه وهو من كبائر مـــا تُبْتلَى به عقولُ الباحثين ، ومزلق من مزالق الغفلة والتقصير .

فمِن اليسير على "باحث غير يقظان" أن يصدر حكما باتاً (أى صارمـــا قاطعا) فيقول إن الشاعر فلانا أو الأديب أو الناقد "سَبَق" إلى فن أو معـــنى أو رأْىٍ واخترعه اختراعا ، أو إن مدرسة من مدارس الشعر أو الأدب أو البلاغـــة أو الفكر عامة "سبقت" إلى شئ من ذلك سبقا وابتكرته ابتكارا عل غير مثـــال تقدم . ولكنَّ هذا الحكم الهَّين عنده – عسيرٌ غير يسير على "الباحث اليقظـــان" العارف ما يطلبه هذا الحكم البات من طول المراجعـــات والمتابعـــات والدقـــة والتثبُّت حتى لا يشذ عنه شئ يمكن أن ينقض حكمه نقضا ويبطله إبطالا .

وجد ابن المعتز من شعراء زمانه إكثارهم من فنون من القـــول سموهـــا "البديع" ، وأن إكثارهم منها مُوهِمٌ سبقَهم إليها واختراعَهم إياها ، وأنها شـــئ هُدُوا إليه ، ودُلُّوا عليه ، لم يكن للمتقدمين منه قليل ولا كثير ، فأنشأ كتابه رداً على دعوى "السبق" هذه ، ودحضا لها ، حتى يَقَرَّ الأمر فى قراره ؛ ولذا استهل كتابه بعد البسملة بقوله : (قد قدمَّنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنـــا فى

القُرَان واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليـــه [وســلم] [1] ، وكـــلام الصحابة ، والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدَثُون "البديع" ، ليُعْلَمَ أن بشارا ومسلما وأبا نواس ، ومن تَقَيَّلهُمْ ، وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم ، فعُرِفَ فى زمانهم ، حتى سُمِّى بهذا الاسم ، فأَعرَبَ عنه ، ودَلَّ عليه) [2] .

ثم قال : (وإنما غرضُنا فى هذا الكتاب تعريفُ النـــاس أن المحدثـــين لم يسبقوا المتقدمين إلى شئ من أبواب البديع) [3] .

فقضية "السبق إلى أبواب من البديع" هى الباعث الذى أهاج ابن المعـتز على تأليف الكتاب إهاجة ، وحمله عليه حملا ، كأنما فزع تفزيعا ، و "ولو تـرك القطا ليلا لنام" [4] ؛ وحسبك من دليل على إهاجته وتفزيعه الصفحات الثلاث الأول ، وهى مقدمة كتابه ، فإنه أفرغ فيهن حكمه فى القضية كمـــا مـــر فى النصين السابقين ، ولم يتمهل حتى يقدم المقدمات ويسوق الأدلة والشـــواهد ثم ينطق بالحكم ، وكيف يصبر وهو هائج مفزع مما أشيع فى الناس وذاع واشـتهر حتى احتاج إلى "تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شئ من أبـواب

---

(1) فى المطبوعة : (صلى الله عليه) فقط أما السلام فزيادة واجبة منى ، وقد وردت الصلاة والتسليم علـى النبى صلى الله عليه وسلم فى الكتاب تامتين فى ص ٨ ، ٩ لأول مرة ، وقد ذكر العلمـــاء أن الصـــلاة على النبى صلى الله عليه وسلم لا تختصر فى الكتابة ، فإن اختصارها مكروه كما قال العراقـــى لـــورود الآثار بذلك ، وإفراد الصلاة عن السلام مكروه ، وعكسه كذلك ، كما قال النووى (ينظـــر منـــاهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ص ٣٦ ، ٣٧ ) .

(2) كتاب البديع : ص ١ ت . كراتشكوفسكى .

(3) كتاب البديع : ص ٣ .

(4) مثل "يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته" وفى مورد المثل كلام لطيف ، فراجعه إن رغبـــت – فى مجمع الأمثال للميدانى ٨٢/٣ المثل رقم ٣٢٣٠ .

البديع" ، وهذا يعنى أن الناس كانوا قد أشيع فيهم أمر سبق المحدثين وعم حـــتى صار حقيقة ثابتة وأمراً غير منكور يقتضى نقضُه أن يزلزل هذه الشائعة ، ولـــذا أنزل هذا النقض غُرَّة كتابه ، وقدمه فى أُنُف بحثه ، وجعله القطب الذى تـــدور عليه الرحى ، فأقام مقدمته عليه ، ثم جعل الكتاب كله بعدها تبعاً لها ، وشواهد تدل عليها ، ناطقة بأن البديع قديم ، ليس من اختراع الشـــعراء المحدثـــين فى عصره أمثال بشار وأبى نواس ومسلم ابن الوليد وأبى تمام ومن تَقَيَّلَهم .

وثمة شئ ثان خليق بالنظر فى تقديم الحكم الذى هو نتيجة البحـــث ، وجعله مفتاح فاتحته ، وذاك أن القارئ إذا بُدِئ له الكتابُ بما ينقض ما اســـتقر فى عقله من ثوابت ، ويهدم ما أشيع فى زمنه من أباطيل ، كان أدعى لانتباهـــه ، وأجلب لعنايته وتوفُّرِه ، وانصرافه إلى القراءة عن كل صارف ، حـــتى يقطـــع الأشواط المتتابعة من الكتاب وهو يقظان .

## ٢- الكتاب ثمرة معركة نقدية :

كان كتاب البديع لابن المعتز ثمرة معركة نقديـــة كـــانت فى عصـــره ولا تزال قائمة إلى زماننا هذا ، فهى قديمة جديدة : معركة تفضيل القديم لقدمه على الحديث لحداثته ، نشبت فى عصر ابن المعتز بين الشعراء المحدثين من جهـــة وعلماء اللغة من جهة أخرى ، فكان علماء اللغة من طبقة سيبويه والأخفـــش والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء لا يحتجون لها ولا يستشـــهدون لمســـائلها إلا بشعر الجاهليين والمخضرمين ، ويضربون صفحاً عن شعر معاصريهم من المحدثين من أمثال بشار وأبى نواس وابن المعتز وأبى تمام ومسلم بن الوليد لما يقعون فيـــه من أوهام فى المعانى والألفاظ فأغضب هؤلاء الشعراءَ عدمُ احتجاج اللغويـــين بشعرهم وقِلَّةُ عنايتهم به واستحسانهم إياه ، فهجا بشار سيبويه من أجل ذلـــك وهجا الأخفش ، حتى اضطرا إلى الاستشهاد بشعره تَقِيَّةً لشره وتحاشيا لهجانه[1] .

---

(1) ينظر الصبغ البديعى : ص ١٢٠ - ١٢٨ .

ولم يخل الميدان من نفر من المنصفين من العلماء الذين جعلـــوا معيـــار التفاضل بين الشعراء القدامى والمحدثين هو إجادة الشاعر وإحسانه وحظه مـــن التوفيق والبراعة ، فمتى استحوذ من ذلك على النصيب الأوفر فهو الفـــاضل سواء أكان من القدماء أم من المحدثين ، ومن هؤلاء ابن قتيبة ، وأبـــو العبـــاس المبرد ، قال ابن قتيبة : "ولم أسلُك فيما ذكرتُه من شعر كل شاعر مختـــارا لـــه سبيلَ من قَلَّد ، أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرتُ إلى المتقدِّم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرتُ بعين العدل على الفريقين ، وأعطيتُ كُلاًّ حظَّه ، ووفَّرْتُ عليه حقَّه ، فإنى رأيتُ من علمائنا من يستجيد الشعرَ السخيفَ لتقدُّم قائله ، ويَضَعُه فى مُتَخَيَّرِه ، ويُرْذِلُ الشـــعرَ الرَّصينَ ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه أو رأى قائِلَـــه ، ولم يَقْصُـــرِ اللهُ العلمَ والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خَصَّ به قوما دون قوم ، بـــل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قـــديم منـــهم حديثا فى عصره ، وكلَّ شَرَفٍ خارجِيَّةً فى أوله ، فقد كان جريـــرٌ والفـــرزدقُ والأخطلُ وأمثالُهم يُعَدُّون مُحْدَثِين ، وكان أبو عمرو بن العلاءِ يقول : لقد كَثُر هذا المُحْدَثُ وحَسُنَ حتى لقد هممتُ بروايته ، ثم صار هؤلاء قدماءَ عندنا بِبُعْـد العهد منهم" [1] .

وقال المبرد : " وليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لِحدْثـــانِ عَـــهْدٍ يُهْتَضَمُ المصيب ، ولكن يُعْطَى كُلٌّ ما يستحق) [2] وكان من حصاد هذه المعركة أن ادعى الشعراء المحدثون أنهم سبقوا القدماء إلى فنون من البديع اخترعوهـــا اختراعا ، وأن علماء اللغة لا يعرفون هذا وليسوا أهلاً للحكومة فيه ، فهذا أبو

---

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٢/١ ، ٦٣ ت . أحمد شاكر ط / دار المعارف .

(2) الكامل للمبرد : ٤٣/١ ت د / الدالى .

نواس "يحكم لجرير على الفرزدق ، فلما قيل له : إن أبا عبيدة لا يوافقك علـــى هذا ، قال "ليس هذا من علم أبي عبيدة ؛ إنما يعرف الشـــــعر مـــن دُفِـــع إلى مضايقه" (١).

وفى كتاب البديع يأخذ ابن المعتز حظه من هذا الحصاد ، فيقول كمـــا قال أبو نواس ، ويجرى فى هذا الميدان ، مثبتا للشعراء علمهم بهـــذه الفنـــون البديعية ، ونافيا معرفتها عن علماء اللغة ، قال : " (قد قدمنا أبـــواب البديـــع الخمسة ، وكَمُلَ عندنا ، وكأنى بالمعاند المُغْرَمِ بالاعتراض على الفضائل قد قال : البديع أكثر من هذا ، أو (*) قال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة الـــتى قدمناها ، فيقِلُّ من يحكم عليه ؛ لأن البديع اسم موضوع لفنون مـــن الشـــعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فـــلا يعرفون هذا الاسم ، ولا يدرون ما هو) (٢) فجرى ابن المعتز على ما جرى عليه أقرانه من الشعراء المحدثين وخاض كالذى خاضوا ، فنفى علم هذه الفنون مـــن الشعر عن "العلماء باللغة والشعر القديم" فلا يعرفون البديع ولا يدرون ما هو ، وأثبت علمها للشعراء المحدثين ونقاد المتأدبين منهم . وضَعْ كلمتَه هذه بجـــوار كلمة أبى نواس : "ليس هذا من عمل أبى عبيدة ؛ إنما يعرف الشعر من دُفِـــع إلى مضايقه" تجد أنهما ينـــزعان عن قوس واحدة .

---

(١) الكشف عن مساوئ المتنبى ٥ عن الصبغ البديعى ص ١٢٨ .

(*) فى مطبوعة المستشرق (وقال ..) وصوابه (أو قال) " عن نسخة شيخنا د . خفاجى ص ٦٨٨ .

(٢) كتاب البديع : ص ٥٧ ، ٥٨ .

وهكذا يجرى ابن المعتز فى ركاب الشعراء المحدثين ، ويقـــع فى حومـــة المعركة ، فيطعن فى علماء اللغة والشعر القديم ، ويرميهم بعدم معرفـــة هـــذه الفنون أو الدراية بها [1] .

وليت شعرى كيف يرمى علماء اللغة والشعر القديم فى عصره بـــأنهم جهلوا الاستعارة والتجنيس والمطابقة ونحوها من فنون البديع وهم أكبر مـــن أن يظن بهم ذلك وأجل ؟

ثم كيف يبنى ابن المعتز كتابه على إثبات "أن البديع قـــديم فى الشـــعر العربى لم يخترعه المحدثون وإنما أكثروا منه فنسب إليهم ، ثم يجئ هنا فينفى عـــن "العلماء بالشعر القديم" معرفتهم ودرايتهم بهذا "البديع" ، فضلا عن نفيه معرفة ذلك عن "العلماء باللغة" أيضاً ؟

## ٣- الفرق بين البديع عند المتقدمين والمحدثين :

انتهى ابن المعتز فى الصفحة الأولى من مقدمة كتابه إلى أن البديع قديم لم يخترعه الشعراء المحدثون فى عصره من أمثال بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليـــد ومن تَقيَّلهَم ، وكان لزاماً أن يبين الفرق بين البديع عند المتقدمين من الشـــعراء وعند المحدثين ، فقال على سبيل الاستدراك (ولكنه – أى البديـــع – كـــثر فى أشعارهم – أى أشعار المحدثين – فعُرِف فى زمانهم حتى سُمِّى بهذا الاسم فأَعْرَبَ عنه ودَلَّ عليه) [2] وقال : (وإنما كان يقول الشاعر –أى القديم– من هذا الفـن

---

(1) من الجلى هنا أن ابن المعتز ينصر أقرانه من الشعراء المحدثين على مناوئيهم من علماء اللغة والشعر القديم ، ولست أدرى كيف سها الدكتور جابر عصفور ، وخفى عليه ذلك مع فرط ظهوره فأثبت أن ابن المعتز نصر المتقدمين أو أهل السلف والأثر" على "المتأدبين أو أهل العقل" ، [انظر قراءة محدثة فى ناقد قديم : ابن المعتز " د . جابر عصفور بحث بمجلة فصول ص ١٠٠ – ١٠٣ عـــدد أكتوبـــر / نوفمـــبر / ديســـمبر ١٩٨٥] والأمر – كما ترى – على خلاف ما أثبت .

(2) كتاب البديع : ص ١ .

البيت أو البيتين فى القصيدة ، وربما قُرِنَتْ من شعر أحدهم قصائدُ من غـــير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حِظـوة بين الكلام المرسل) [1] فالفرق بين الفريقين فى كثرة استعمال البديع وقلته لا فى أصل استعماله ، فالمتقدمون من الشعراء لم يكونوا مكـــثرين منـــه والمحدثـــون مكثرون ، فلما أكثروا منه عُرِف أى اشتُهِر وأُشِيع ، لا أنه كان مجهولاً قبـــل زمانهم فعُرِف فى زمانهم ، فلما طُيِّر ذِكرُه فى زمانهم وأُشِيع اخترعوا لـــه اسمـــاً (مصطلحاً) يدل عليه وهو اسم (مصطلح) "البديع" .

وهذا الحكم من ابن المعتز وراءه جهد ضخم فى تفقد أساليب اللغـــة فى القرآن الكريم وبيان المعصوم صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنـــهم والتابعين وبيان العرب والأعراب ، وشعر الشعراء : تفقد أساليب اللغة فى ذلك كله قبل عصر ابن المعتز ، ثم تفقدها فى بيان عصره شعرا ونثرا علـــى جهـــة الحصر والاستقصاء لإدراك الكثرة والقلة ، وهذا عمل فيه من الكدح والمكابدة ما فيه !!

وحاول أن تتفقد أساليب القرآن الكريم وترصد هذه الفنون الخمســـة (الاستعارة – الجناس – المطابقة – رد الأعجاز علـــى الصـــدور – المذهـــب الكلامى) وحاول أن تتفقد ذلك فى صحيح الإمام البخارى ، وحاول أن تتفقده فى شعر امرئ القيس وحده ، فإنك واجد من الأمر شدة ورَهَقاً .

## ٤- المصطلحات البلاغية فى الكتاب :

ذكر ابن المعتز فى كتابه واحداً وعشرين مصطلحـــاً بلاغيـــاً ، هـــى : (الاستعارة – الاعتراض – إعنات الشاعر نفسه فى القوافى (لزوم ما لا يلزم) –

---

(1) كتاب البديع : ص ١ .

الإفراط فى الصفة – الالتفات – البديع – تأكيد المدح بما يشبه الذم – تجـاهل العارف – التجنيس – التشبيه – التعريض – التعقيد – حسن الابتـــداءات – حسن التضمين – حسن الخروج – الرجوع – رد الأعجاز على الصـــدور – الكناية – المذهب الكلامى – المطابقة – الهزل الذى يراد به الجد) .

وقد تناول ابن المعتز منها بالتفصيل ثمانية عشر مصطلحاً [1] ، كان لـــه فضل السبق إلى خمسة منها فهى من اختراعه ، وهى (إعنات الشاعر نفســـه فى القوافى (لزوم ما لا يلزم) – تأكيد المدح بما يشبه الذم – تجاهل العـــارف – رد الأعجاز على الصدور – الهزل الذى يراد به الجد) ، أما الثلاثة عشر مصطلحـاً الباقية فهو مسبوق إليها ، وإن كان له فضل التسمية والتمثيل فى مصطلحـــى "التضمين" و "حسن الخروج" [2] .

وذكر المؤرخون لمصطلح "البديع" أن الذى فتقه ومهد له فى شعره مـــن المحدثين بشار بن برد ثم تبعه جمع من الشعراء كابن هَرْمَةَ وكلثوم بـــن عمـــرو العتابى ، ومنصور النمرى ، ثم أكثر منه وتَكَلَّفه مسلم بن الوليد ولقَّبه بـــالبديع واللطيف وكان زعيم هذه الصنعة ، ثم بلغت الصنعة غايتها على يد أبى تمام [3] ، (وكان ابن المعتز السابق إلى جمعها على هذا الوجه فى كتاب سماه "البديع") [4] ،

---

(1) خرج ثلاثة مصطلحات لم يتناولها بالتفصيل وإنما وردت فى سياق كلامه وهى (البديع – التعريـــض – التعقيد) .

(2) ينظر الصبغ البديعى : ص ١٣١–١٤١ . وعد الدكتور خفاجى ما اخترعه ابن المعتز من المصطلحات عشرة ، زاد على ما سبق (التجنيس والاعتراض والالتفات والتعريض وحســـن التضمـــين والرجـــوع) ونقص منه (لزوم ما لا يلزم) (ينظر شرح كتاب البديع : ص ٦٠٢) وما ذكر صاحب الصبغ البديعـــى أدق .

(3) ينظر المصدر السابق : ص ٦٠ ، ٦١ .

(4) السابق : ص ١٤١ بتصرف .

قال : "وما جمع فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد" [1] ، واستشـــكل الدكتـــور محمد عبد المنعم خفاجى دعوى السبق هذه ، وطعن فيها بأن أبا العباس ثعلبـــاً ( ت ٢٩١ هـــ) وهو أستاذ ابن المعتز سبق إلى جمعها فى كتابه "قواعد الشعر" ، وتعجب من عدم إشارة ابن المعتز إلى كتاب شيخه مع أنه وافقه فى كثير مـــن المصطلحات والشواهد ، وهذا –فيما يرى– أمر غريب [2] وثمة وجـــه يزيـــل الإشكال والغرابة هو "أن ابن المعتز قد فرغ من كتابه ســـنة ٢٧٤ هـــ وإن تأخرت وفاته بضع سنوات عن ثعلب" [3] ، وهذا يعنى أن كتاب البديع لابـــن المعتز أسبق تأليفا من "قواعد الشعر" لثعلب ، وإن قُتِل ابن المعتز (٢٩٦ هـــ) أى بعد وفاة ثعلب (٢٩١هـــ) بخمس سنين فالعبرة بأسبقية التأليف لا بأســبقية الوفاة ، ومن ثم لم يكن ابن المعتز ليشير إلى كتاب "قواعد الشعر" لشيخه ؛ لأنـه لم يكن أُلّف بعد .

أما عن طريق تناول ابن المعتز للمصطلح البلاغى ، فإنه كان يســـتهل بتعريفه –غالباً– فهو يعرف الاستعارة بأنها (استعارة الكلمة لشئ لم يُعْرَف بهـــا من شئ قد عُرِف بها) [4] ثم يورد الشواهد .

وإذا كان للمصطلح صور فإنه يذكرها ويمثل لـــها ، كمـــا صنـــع فى الجناس [5] ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها [6] .

---

(١) كتاب البديع : ص ٥٨ .

(٢) ينظر شرح كتاب البديع : ص ٦٠٥ – ٦٠٧ .

(٣) الصبغ البديعى : ص ١٣٧ .

(٤) كتاب البديع : ص ٢ .

(٥) ينظر السابق ص ٢٥ .

(٦) ينظر السابق ص ٤٧ ، ٤٨ .

واتسم ابن المعتز بالدقة فى رصد صور بعض الفنون والاستشهاد لهـــا ، على نحو أخذه عنه من جاء بعده من علماء البلاغة .

ومما استُدرِك على ابن المعتز أنه فى تناوله "المذهب الكلامـــى" قـــال : (وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن منه شيئا) [1] ، قال ابن أبى الإصبـــع المصرى (٥٨٥-٦٥٤هـــ) : "وزعم ابن المعتز أنه لا يوجد فى الكتاب العزيز ، وهو محشو منه ، ومنه قوله تعالى حكاية عن الخليل -عليه السلام- : "وَحَاجَّـــهُ قَوْمُهُ" [2] إلى قوله عز وجل : " وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيناها إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِـــهِ" [3] وقوله تعالى : "أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَـــى أَنْ يَخْلُـــقَ مِثْلَهُمْ بَلَى" [4] وقوله سبحانه "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَـــةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَـــدَتَا" [5] ) [6] وأورد له الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩ هـــ) شواهد من الذكر الحكيم [7] .

وحسب ابن المعتز أن سارت شواهده فى هذا الباب وفى سائر أبـــواب كتابه فملأت دواوين البلاغة من بعده ، وشرقت وغربت ، وقد نقل ابن رشيق (٣٩٠-٤٥٦ هـــ) عنه "المذهب الكلامى" نقلا وصرح بذلك ، معتذراً بقلـــة

---

(1) كتاب البديع ص ٥٣ ولم يعرفه ابن المعتز ، وذكر أن الذى سماه المذهب الكلامـــى هـــو الجـــاحظ ، و (المذهب الكلامى عبارة عن احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند لـــه فيـــه ؛ لأنه مأخوذ من علم الكلام الذى هو عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية) تحرير التحبير لابـــن أبى الإصبع المصرى (٥٨٥-٦٥٤هـــ) تحقيق د . حفنى شرف ط / المجلس الأعلى للشئون الإســـلامية : ص ١١٩ .

(2) الأنعام الآية : ٨٠ .

(3) الأنعام الآية : ٨٣ .

(4) يس : ٨١ .

(5) الأنبياء : ٢٢ .

(6) تحرير التحبيـــر : ص ١١٩ .

(7) ينظر الإيضاح بأعلى البغية : ٤/٥٠ ، ٥٢ .

الشواهد فيه قال : (وقد نقلت هذا الباب نقلاً من كتاب عبد الله بن المعـــتز ، إلا ما لا خفاء به عن أحد من أهل التمييز ، واضطرنى إلى ذلك قلةُ الشـــواهد فيه) [1] .

وقد أدرج ابن المعتز فى شواهد الاستعارة أمثلة هى من التشبيه المحذوف الوجه والأداة لا من الاستعارة ، منها قول الإمام على – كـــرم الله وجهـــه – "العلم قُفْلٌ مِفْتاحه السؤال" [2] ففى هذا الأثر الكريم تشبيهان محذوفا الوجـــه والأداة ، الأول تشبيه العلم بالقُفْل فى أن كلا منهما مغلق على ما فيه ، مطـوى على ما يحميه من كنوز ، وما تقول فيمن وقع على كَنْـــز ثمين فعجز عن فتـــح أقفاله ؟ أىُّ حزن يصيبه وأى ندم ؟ وأى عجز وقلة حيلة يوصم بهما ؟ وكـــذا المتعلم المقصِّر المحروم من كنـــز العالم بعدم سؤاله إياه واستخراجه ما عنده مـــن نفائس . والثانى تشبيه السؤال بالنسبة للعلم بالمفتاح بالنسبة للقُفْل ، وكلاهمـــا السبيل إلى الوصول والانتفاع ، وما قيمة علم لا يُهْتَدى إلى سبيله ؟

وعذر ابن المعتز أن التشبيه المحذوف الوجه والأداة قريب جداً من دائرة الاستعارة ، حتى يكاد يلامسها ، وقد عده جمع من البلاغيين اســـتعارة ، قـــال العلوى : " وقد قال به أبو هلال العسكرى والغانمى وأبو الحسن الآمدى وأبـــو محمد الخفاجى وغيرهم من علماء البيان ، وحجتهم فى ذلك قولهم : الاســـتعارة ليس لها آلة ، والتشبيه له آلة ، فما كانت فيه آلة التشبيه ظاهرة فهو تشـــبيه ، وما لم تكن فيه ظاهرة فهو استعارة ، فقوله : زيد أسد ، لا آلة فيه ، فوجـــب كونه من الاستعارة" [3] .

---

(1) العمدة : ٨٠/٢ .

(2) كتاب البديع : ص ٥ .

(3) الطراز للعلوى ج١ ص ٢٠٦ واستدرك عليه شيخنا الدكتور محمد أبو موسى عده ابن سنان الخفـاجى ممن جعل هذا اللون استعارة "انظر التصوير البيانى د . محمد أبو موسى ص ١٨٦ ، ١٨٧" .

ويلاحظ أن آخر مصطلح ختم به ابن المعـــتز كتابـــه هـــو "حســـن الابتداءات" [1] ولعل المتأخرين من علماء البلاغة تأسَّوا به فوضعوه فى خواتيـــم تآليفهم حيث وضعه ابن المعتز [2] .

## ٥- شواهد كتاب البديع :

أ- يكاد كتاب البديع يكون شواهد كله ، ولك أن تســـتثنى منـــه الصفحات الثلاث الأول ، ثم من أول قوله (قد قدمنا أبواب البديع الخمســـة) ص ٥٧ إلى قوله (فله 'خيار') ص ٥٨ أى ما يساوى صفحة واحدة ، وما عدا هذه الصفحات الأربع شواهد متتابعة فى كل فن من فنونه الثمانية عشرة .

وهذا السيل الجرار من الشواهد ضرورة لابد منها ؛ لأن الكتاب قـــائم على إثبات أن البديع قديم لم يخترعه المحدثون ، وإنما أكثروا منه ، فكان لزاماً أن يورد ابن المعتز من الشواهد للمتقدمين ما يثبت وجود كـــل فـــن عندهـــم ، وللمحدثين ما يثبت إكثارهم منه ، ثم زاد ابن المعتز فذكر شواهد للمعيـــب فى كل فن ، فوفى وزاد .

ويبدو أن ابن المعتز ادخر عنده شواهد غير التى أورد ، ولذا قال (هـــذا بعض ما وجدناه فى القُرَان واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه [وســـلم] وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الـــذى سمـــاه المحدثون "البديع") [3] ولو ذكر ابن المعتز كل ما وجد لكان للكتـــاب حجـــم أضخم بكثير مما هو عليه .

---

(١) كتاب البديع : ص ٧٥ .

(٢) ينظر الإيضاح مع البغية ١٤٨/٤ ويراجع شروح التلخيص ٥٢٩/٤ .

(٣) كتاب البديع : ص ١ .

**ب- أساسان لاختيار الشاهد :**

قال ابن المعتز : (وقد أسقطنا من كتابنا هذا أسانيد الأحـــاديث عـــن رسول الله صلى الله عليه [وسلم] ، وعن أصحابه ؛ إذ كان ذلك من التكثير ، ولم نذكر إلا حديثا مشهورا ، ولعل بعض من قَصَّر عن السبق إلى تأليف هـــذا الكتاب ستحدثه نفسُه وتمنيه مشاركتَنا فى فضيلته ، فيسمى فنا من فنون البديع بغير ما سميناه به ، أو يزيد فى الباب من أبوابه كلاماً منثورا ، أو يفسر شـــعراً لم نفسره ، أو يذكر شعراً قد تركناه ولم نذكره ؛ إما لأن بعض ذلك لم يبلـــغ فى الباب مبلغ غيره فألقيناه ، أو لأن فيما ذكرناه كافيا ومغنيا . وليس من كتـــاب إلا وهذا ممكن فيه لمن أراده ؛ وإنما غرضنا فى هذا الكتاب تعريـــف النـــاس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شئ من أبواب البديع ، وفى دون ما ذكرنا مبلـــغ الغاية التى قصدناها ، وبالله التوفيق) [1] .

وفى هذا النص كثير من الودائع الثمينة ، ومن أهمها أنه أرسى أساســـين لاختيار الشاهد ، حين تكثر الشواهد بين يدى الباحث ويحار فيما يأخذ منـــها وما يدع ، وكثيرا ما تدخل الرِّيبة فى اختيار الباحث ما يورد مـــن شـــواهد ، خشية أن يكون ما أغفل منها واطَّرح خيرا وأزكى مما انتقى واصطفـــى = أو أن يكون أقام اختياره على غير هُدىً أو ضابط ، فيخبط خبط عشـــواء = أو أن يكون مقصِّرا فى جمع شواهده فيعرض ما وجد منها فقط ، وما وجد إلا قليـــلا ، ولو فتش لوجد فى الزوايا خبايا ، ولجاء بأضعاف ما وجد ، ولكنـــه الكســـل والعجز لا غير !!

---

(1) كتاب البديع : ص ٢ ، ٣ .

وآفات ذلك كله تظهر فيما يصدر فى بحثه من أحكام غير سديدة ، لأنه لم يقدم لها مقدمات سديدة ، وما تقول فيمن حكم على شئ بأدنى ما وجد مـــن صوره وشواهده = أو حكم عل جملته حكما عاما يشمل الجنس كله مع أن مـــا غاب عنه من صوره وشواهده أكثر مما حضر = أو فيمن بنى حكمه على المختار المصطفى من الصور والشواهد ليُجَمِّل موضوع بحثه ويزينه ويعظمه ، وقد تـــوك ما هو أقل حسنا وما هو نازل إلى دَرَك القبح أو هابط فى مستنقع الفســـــاد – أتقول إن واحدا من هؤلاء موفَّق مصيب ؟ إنما أُتُوا مـــن خطئـــهم فى اختيـــار الشاهد .

أما الأساسان اللذان أرساهما ابن المعتز لاختيار الشاهد ، فهما :

الأساس الأول : أن يبلغ الشاهد فى بابه مبلغا قويًا ، بحيث يكون أَنْطـقَ فى الاستدلال ، وأبينَ عن الغرض ، وكأن الدارس يملك مقياسا دقيقا أو ميزانـــا (حسَّاسا) يَمِيزُ به شواهد : قوة وضعفا ، وشهرة وخمولا ، وتنكشف له آفـــاق كل شاهد وآماده ، فمن العيب إذن أن يعمد إلى شاهد ضعيف لا يقوم بحجتـــه أصلا ، أو يقوم بها على وجه بعيد مع تكلف وإكراه له على أن ينطق بما ليـــس فيه ويجلس مجلسا ليس أهلا له .

ومن العيب أن يترك –لأجل هذا الضعيف الواهى– شاهدا آخر قويـــا هو عَلَمٌ فى بابه ، ينهض بالحجة ، ويُمِيط اللثام عن حُرِّ الفكـــرة ، فيكشـــفها كشفا ، ويمثلها تمثيلا ؛ ولأجل هذا حرص العلماء فى كل مسألة على تصديرهـــا بشاهد يعدونه هو العَلَمَ فى المسألة ، فإذا كانت "أو" بمعنى "الواو" قالوا إنه مـــن باب :

جَاءَ الخِلافةَ ، أو كانَتْ له قَدراً كمـــا أتى رَبَّهُ موسى على قَدَر [1]

وهكذا تسمع فـــى النحو أن المسألة من باب "جُحْرُ ضَبٌ خَـرِبٌ" [2] أو من باب "جاؤا بَمذْقٍ هل رأيتَ الذئبَ قَط" [3] . أو علـــى لغـــة "أكلـــونى البراغيث" [4] ، وهذا فى النحو كثير ، وتسمع فى البلاغة أن الأسلوب من باب (وَاسْأَلِ القَرْيَةَ) [5] أو من باب :

وإذا المِنيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفارَهـــا أَلْفَيـــــــتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

أو من باب :

إن السَّمَاحةَ المروءةَ والنَّـــدى فـــــى قُبَّةٍ ضُرِبتْ على ابن الحَشْرَجِ

وهكذا تصير بعض الشواهد لقوتها فى بابها رؤوســـا ورمـــوزا تُحْفَـــظ ويُقَاسُ عليها غيرها ؛ إذا ذكرت القاعدة كان الشاهد العَلَمُ مفتاحَـــها يذكـــر بذكرها ويخطر على البال عند خطورها ؛ لما بينها من فرط التلازم .

وفى هذا الأساس المهم قال ابن المعتز فى النص السابق وهو يذكر مـــن يعترض عليه بذكر شعر تركه ولم يستشهد به ، قال : (أو يذكر شعرا قد تركناه ولم نذكره ، إما لأن بعض ذلك لم يبلغ فى الباب مبلغ غيره فألقينـــاه) وكـــأن

---

(1) ينظر الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى : ص ٢٣٠ ت د . فخر الدين قباوة . ط . منشـــورات دار الآفاق الجديدة ط . ثانية .

(2) شاهد الجر على المجاورة ، وهو شاذ ، "روى بخفض "خرب" لمجاورته لضب ، وإنما كان حقه الرفع لأنـه صفة للمرفوع وهو الجحر" شرح شذور الذهب لابن هشام الأنصارى بتعليق الأســـتاذ عبـــد المتعـــال الصعيدى (ص٢٦٢) ط . صبيح .

(3) شاهد مجئ النعت جملة طلبية . والمذق : لبن مخلوط بالماء . ينظر حاشية الصبان على شـــرح الأشمـــونى ٦٤/٣ ط . عيسى الحلبى .

(4) شاهد إلحاق علامة بالفعل دالة على جمع الفاعل . ينظر شرح شذور الذهب ص ١٤١ .

(5) سورة يوسف : ٨٢ .

الشواهد يَغْلِبُ بعضُها بعضا ، والبقاء للغالب القوى الذى يطرد الضعيف مـــن ساحة الاستشهاد والبقاء الخالد فى عقول أهل العلم وعلى أطراف ألسنتهم .

الأساس الثانى : أن ينتقى من الشواهد قدرا يجمع أطراف الموضـــوع ويفى بشعبه وفروعه ، فلا يحشد الشواهد حشدا فى طـــرف مـــن موضوعـــه أو شعبة أو فرع ، ويهمل باقى الأطراف أو الشعب أو الفـــروع .. فـــالبحث الجيد ما كانت شواهده موزعة بقدر على مسائله وفروعه ، فـــإذا مـــا وفَّـــى الدارس بأطراف الموضوع وشعبه واستمد الشواهد الكاشفة عنها ، فلا عليـــه بعد ذلك أن يدع مما جمع من الشواهد ما لا يكون فى إيراده جديدا يضـــاف إلى بحثه ، لأن إيراده حينئذ يكون عبئاً على البحث وعيبا ، وتكثيرا وحشوا .

وفى هذا قال ابن المعتز فى النص السابق رداً على من أنكر عليه تـــرك بعض الشواهد : (لأن فيما ذكرناه كافيا ومغنيا) ، وقال : (وفى دون ما ذكرناه مبلغ الغاية التى قصدناها) .

واختيارات ابن المعتز ذات قيمة أدبية عالية ، وأثر لا ينكـــر فى تنميـــة الذوق الرفيع ، والإحساس بالبيان العالى ، لدى النشء أو "المتأدبين" كما كـــان يسميهم ابن المعتز ، فشواهد الكتاب قطوف ممتعة من حر البيـــان ، اختارهـــا بعناية ، وانتقاها بدقة ، لتبقى وتخلد من بعـــده ، محفوظـــة فى العقـــول لأنهـــا اختيارات شاعر ذواق ، يعرف للكلمة الحرة النافذة قدرها ، ويميز الجيد مـــن الردئ . والشعراء من أبرع الناس اختيارا للبيان بما أوتوا من سلامة الـــذوق ، وصحة الطبع ، وصدق الموهبة ، ودونك مختارات أبى تمام من شعر العربيـــة فى سفر نفيس سماه "ديوان الحماسة" ، وهى بالغة من استحسان العلماء ما لم يبلغـــه سواها من كتب الاختيار ، ولاشك فى أن لشاعرية أبى تمام التى حكَّمها وحكَّـــم ذوقها الرفيع فيما يصطفى ويختار دخلا فى ذلك الاستحسان .

وترى ابن المعتز لإفراط بعض ما اختار من شواهد فى الحســـن كأنمـا أخذته طُرْبة –كما كان يقول الإمام عبد القاهر– فبـاح بملاحتـها وحســنها وعجائب ما استُودِع فيها من آى الحسن والبراعة ، ومن هذا طربه للجنـلس فى بيت الطائى :

سَعِـدتْ غَرْبَةُ النَوى بسُعادِ فَـهْىَ طَـــــوعُ الإِتْهَامِ والإِنجادِ

قال : (وهذا من الأبيات الملاح) [1] .

ومنه قوله فى الإفراط فى الصفة : (فممن ملّح فى هذا المعنى إبراهيم بـن العباس الصولى فى قوله :

يـا أخـاً لم أر فى النـاس خِـلاً مثلَـه أســـرعَ هَجْـــراً ووَصْـــلاً

كُنتَ لى فى صَدْر يومـــى صديقـاً فعلـى عـهدِك أمســـيتَ أم لا ) [2]

ومنه قوله : (ومن عجائب التشبيه قول عَدِىّ بن الرِّقاع :

تُزْجِـــى أَغَنَّ كأنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أصـــابَ من الدواةِ مِدَادَها) [3]

ومنه قوله : (ومن أحسن التشبيه قول بشار :

كأنَ فـــــؤادَه كُرَةٌ تَنَزَّى جِـــــذَارَ البَينِ لو نَفَع الحِذَارُ) [4]

ومنه قوله : (ومن التشبيه الحسن قول البحترى :

---

(1) كتاب البديع : ص ٢٩ والبيت فى ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ٣٥٦/١ قال التـــبريزى : "غَرْبَـةُ النوى : بُعْدُ النية . أى : سعدت النوى بمواتاة سعاد إياها فى وجوهها ، فتصير بها مرة إلى تهامة ومـرة إلى نجد " .

(2) السابق : ص ٦٥ ، ٦٦ .

(3) السابق : ص ٧١ .

(4) السابق : ص ٧٢ .

تُخْفِي الزجاجةَ نُورُهـــا فكأنما فـــــــى الكـــفِّ قائمةٌ بغير إناءِ [1]

**ج - منهجه فى شواهده :**

أقام ابن المعتز شواهده فى كل فن من فنون البديع الخمسة التى تناولهـــا فى كتابه على نهج واحد لا يحيد عنه ، فكان يبدأ الفن بتعريفه غالبا [2] ، ثم يـورد بعض شواهده فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وكلام الصحابـــة ثم يورد شواهد متتابعة من كلام المتقدمين شعرا ونثرا ، ثم نظيرها من كلام المحدثين شعرا ونثرا ، ثم يختم الفن بذكر (المعيب) من شواهده دون فصل بين المعيب من كلام المتقدمين والمحدثين .

وفى الفنون الثلاثة عشر التى سماها "من محاسن الكلام" أوجز فيها إيجازا شديدا إلا فى "حسن التشبيه" فعاد فيه إلى سيرته الأولى فى فنون البديع الخمســة فأطال النفس –نوعا ما– وأكثر من الشواهد ، وفى الفنون الاثنى عشر لم يبـــدأ بتعريف الفن إلا نادرا ثم يور شواهده مجتمعة دون فصل بين المتقدمين والمحدثين ، وهى أقل بكثير من شواهد فنون البديع الخمسة .

ولابن المعتز من شواهده مواقف متعددة ، فالغالب أنه يسردها ســـردا متتابعا دون تدخل ببيان أو كشف لوجه الاستشهاد وإن غمض [3] ، وعلى هذا أكثر الكتاب ، مما اضطرنى إلى القول آنفا بأن كتاب ابن المعتز لا يزال شـــرحه

---

(1) السابق : ص ٧٣ .

(2) لم يعرف من الفنون الخمسة "رد أعجاز الكلام على ما تقدمها" و "المذهب الكلامى" وعرف الفنـــون الثلاثة الأخرى (الاستعارة – الجناس – المطابقة) .

(3) من هذا الغامض الخوج إلى فضل نظر وتفكر استشهاده بهذا الأثر فى الاستعارة ، قـــال : (ولمـــا قتـــل عثمان –رضى الله عنه– قال أبو موسى : حَيْصَةٌ من حَيَصاتِ الفتن ، بَقِيت المُثْقِلَةُ الرَّداحُ) كتاب البديـــع ص ٥ ، ٦ . "وحَيْصَةٌ من حَيَصَات الفتن : أى رَوْغَةٌ منها عدلت إلينا" ، والمُثْقِلَةُ الرَّدَاحُ : "أراد الفتنـــة الثقيلة العظيمة" [اللسان : حيص ، ردح] .

أمانة فى أعناق الأجيال من الدارسين ، لتذليل ما اســـتعصى مـــن شـــواهده ، وتقريبها ، وبسط معانيها وموطن الاستشهاذ فى كل مثال ، وهـــذا الموقـــف الغالب من ابن المعتز مع شواهده لا يلام عليه ؛ لأنه كان مدفوعا وراء قضيـــة يريد حشد أكبر قدر ممكن لديه من شواهدها وهى قِدَم البديع ، ولـــذا ســـرد معظمها سردا دون تدخل منه ، كأنما يغالب غلابا ، ويهدم زورا أشيع فى زمانه ؛ فتراه لَهِجاً بذكر شواهده دون فسحة لتحليل الشاهد إلا قليلا ، كما أنه كـــان يخاطب أهل زمانه الذين يغنى التلميح لهم عن التصريح وتقوم الإشـــارة مقـــام العبارة . وافتح أى صفحة من الكتاب تجد شواهده تترا بلا تحليل إلا فى القليـــل منها .

وفى هذا القليل الذى وقف معه ابن المعتز قاطعا تتابع ســـرده ، نـــراه مقتصراً على تحديد اللفظ أو الجملة التى هى موضع الشاهد ، ومن ذلك أنـــه استشهد للاستعارة بقول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وذكر الملوك فقـــال : "إن الملوك إذا ملَكَ أحدُهم زهَّده الله فى ماله ، ورَغَّبه فى مال غيره ، وأَشْـــرَبَ قلبَه الإشفاقَ ، وهو يَحْسُدُ على القليل ، ويَتَسخَّطُ الكثير ، جَذِلُ الظـــاهر ، حَزِينُ الباطن ، فإذا وَجَبَت نفسُه ، ونَضَبَ عُمرُه ، وضَحَا ظِلُّهُ ، حاسبه الله عز وجل فأشدَّ حسابه وأَقَلَّ غَفْرَه" [1] قال ابن المعتز : "أراد من هذا ، نَضَبَ عُمرُه .

---

(1) كتاب البديع : ص ٤ والخطبة من عيون كلام أبى بكر رضى الله عنه ، كثر التمثـــل بهـــا فى كتـــب الحديث والتاريخ ودواوين الأدب ، فهى مما ذكر أخى الدكتور أحمد عطوان فيما جمع من كلام أبى بكـــر -رضى الله عنه- فى رسالته "الخصائص البلاغية فى كلام أبى بكر الصديق -رضى الله عنـــه-" : ص ٨ ، ٩ وأورد فى روايتها ومصادرها : (كنـــز العمال ٧٥٥/٥ ، وحلية الأولياء ٣٤/١ وتـــاريخ الخلفـــاء ١٠٢ والعقد الفريد ٥٩/٤ وزهر الآداب ٣١/١ والبيان والتبيين ٤٣/٢ ، ٤٤ ، ونثر الـــدر ١٢/٢) وزاد العلامة المحقق عبد السلام هارون فى هامش البيان والتبيين : عيـــون الأخبـــار ٢٢٣/٢ وصبـــح الأعشى ٢١٣/١ ، وأزيد الآن فى مصادرها "كتاب البديع لابن المعتز : ص٤" فهو من أقـــدم المصـــادر =

وهو من الاستعارة" [1] ، فلم يزد على تحديد موضع الاستعارة بقوله "أراد مـــن هذا" وخص موضعاً واحدا للاستعارة وهو "نَضَبَ عُمرُه" مع أن فيها –فى هـذه الرواية– موضعا آخر ظاهراً ، وهو قوله : "وأَشْرَبَ قلبَه الإشفاق" والاســتعارة فيه من قبيل التى فى قوله تعالى : (وأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) [2] ولعـل المراد بالإشفاق الحرص على الدنيا ومتاعها الزائل ، فجعلت الاســـتعارة هـــذا الحرص كالماء يشربه الملك فيتغلغل فى أوصاله وأجزاء جسمه كله بحيث يصعب انتزاعه ؛ ولذا عبر أبو بكر –رضى الله عنه– عن شدة الحرص ومخالطته أجـــزاء الجسم وسريانه فيها بالإشراب على طريق الاستعارة التبعية فى الفعل "أُشْرِب" ، وفيه دلالة على أن حرصه على الدنيا صار أساس حياته الذى لا غنى له عنـــه ، كما لا غنى له عن الماء يشربه ويسرى فى جسده ؛ ولذا تراه غير راض بما قســم الله له من العطاء فهو يطمع فيما فى يد غيره قليلاً كان أو كثيراً ؛ قال أبو بكـــر "وهو يحسد –أى غيرَه– على القليل ، ويتسخَّط الكثير" أى لا يرضى بـــالقليل فيحسد غيره ، ولا يقنع بالكثير فيستقله .

وأما الاستعارة التى أرادها ابن المعتز "ونَضَبَ عُمْرُه" فهى قطـــب ممـــا يدور عليه البيان فى هذه الخطبة ، تصور عمر الملك وكأنه معين لا يزال يغـترف منه بما ينفق من مدة أجله حتى إذا استوفى أجله نضب المعين الذى هـــو عمـــره المقدور وأجله المؤجل ، وفى نضوب العمر ما فيه من معنى الجفاف والفراغ بعـد

---

= المذكورة . وللخطبة روايات كثيرة ، فيها زيادة ونقصان ، ورواية ابن المعتز من أوجزهـــا ، إن لم تكـــن أوجزها ، ولم يسبقه من هذه المصادر إلا البيان والتبين للجاحظ وهو من مصادر ابن المعـــتز ، ولكـــنى أرجح عدم اعتماده على روايته ؛ لما بين الروايتين من اختلاف كبير ، يفسد معه القول بأن ابـــن المعـــتز اعتمد رواية الجاحظ .

(1) البديع ص ٤ .

(2) سورة البقرة : (٩٣) .

الامتلاء ، وهى استعارة مكنية بليغة فى لفظ "عمر" على تشبيهه بالمعين أو البحر الذى يغرى صاحبه –وإن كان ملكا– بكثرة مائه وجريانه هادرا الموح ســـخى العطاء يتدفق ويترقرق بمائه ، فيلهو ويطول أمله ويسوء عمله حتى يرى البحـــر يابساً والمعين ناضبا فيلاقى أجله المؤجل وقدره المقدر ، وهى استعارة فذة فيـــها من المعانى ما لم أحسن الإصغاء إلى همسه ولا العبارة عنه ، وحُقَّ لابن المعـــتز أن يقف عندها ، فهى ملأى سحاء .

وقول أبى بكر "فإذا وَجَبَتْ نفسُه" أى مات ، "وأصـــــل الوجـــوب : السقوط والوقوع" [1] ، وقوله "وضَحَا ظِلُّه" أى مات أيضا ، "يقال للرجـل إذا مات وبَطَل : ضَحَا ظِلُّه . يقال ضحا الظل إذا صار شمسا ، وإذا صـــــار ظـــل الإنسان شمسا فقد بَطَل صاحبُه ومات .. لأنه إذا مات صار لا ظل لـــــه . وفى الدعاء : لا أضحـــى الله ظِلَّك ، معناه : لا أمـــاتك الله حـــتى يَذْهـــبَ ظِـــلُّ شَخْصِك" [2] . وتَتابُعُ جملتين فى بيان الصديق بمعنى دليل على حرصـــه علـــى استقصاء جزئيات المعنى ودرجاته ، فقوله "وجبت نفسه" يعنى سقط لتوه فخـــر ميتا ، ولا يمنع هذا أن يكون له جسم موجود وظل باق حتى يُوارَى الـــثرى ، فجاء قوله "وضحا ظله" مستوفيا هذه المرحلة الثانية ودالا علـــى أنـــه ووارى التراب بدليل أنه لم يعد له ظل ، فهو كناية لطيفة ، وهذا قليل من كثير يمكـــن أن يقال فى تحليل شئ من خطبة أبى بكر الرائعة ، وينبغى الوقوف أمام شـــواهد ابن المعتز وقوفا يطيل النظر فيها ، وبهذا تدنو قطافة ، ويعم نفعه .

---

(1) لسان العرب (وجب) ٤٧٦٧/٦ ط / دار المعارف .

(2) السابق (ضحا) بتصرف ٢٥٦٣/٤ وينظر أساس البلاغة للزمخشرى (ضحا) ٤٤/٢ .

ومما جرى فيه ابن المعتز على طريقته فى إيراد الشاهد محـــددا موضعـــه فقط دون تحليل قوله فى شواهد الاستعارة "ورووا أن عليا –رضى الله عنـــه– قال لبعض الخوارج فى حديث طويل : والله ما عُرِفْتَ حـــتى نَعَـــرَ البـــاطلُ ، فنَجَمَتْ نُجُومُ قَرْن الماعزة . أردنا قوله : نَعَرَ الباطل" [1] .

ومنه قوله فى شواهد رد أعجاز الكلام على ما تقدمها : "وقال مسلم :

تَبَسَّمَ عن مِثْلِ الأقَاحِى تَبَســـمَتْ لـــه مُزْنَـــةٌ صَيِفِيـــةٌ فتَبَسَّـــما
وليلـــةَ مـــاتَ اللَّـــهوُ إلا بَقِيـــةً تَدَارَكَـــها طَيْـــفٌ أَلَمَّ فَسَـــلَّما
مَزِيدُكِ عندى أن أَقِيكِ من الـــرَّدَى وإن كـــان شَـــجْواً أن أكـــونَ المُقَدَّمـــا

أردنا من هذه الأبيات البيت الأول" [2] .

وقليلاً ما كان ابن المعتز يضئ موضع الاستشهاد بكلمة تكشف الطريق ، دون أن تتغلغل فى أسرار البيان ، ومن ذلك قوله : "ومن الاستعارة قول امـرئ القيس :

ولَيلٍ كمَوْجِ البَحْرِ مُرْخٍ سُـــدُولَهُ عَلَـــىَّ بـــأنواعِ الهُمُـــومِ لِيبْتَلِـــى
فقُلْتُ لـــه لمـــا تَمَطَّـــى بصُلْبِـــه وأَرْدَفَ أَعْجَـــازًا ونَـــاءَ بِكَلْكَـــلِ

هذا كله من الاستعارة ؛ لأن الليل لا صُلْبَ له ولا عَجُز" [3] ، فقولـــه "لأن الليل لا صلبْ له ولا عجز" بيان لقرينة الاستعارة الصارفة للعبارة عـــن الحقيقة إلى المجاز لا غير .

---

(1) كتاب البديع : ص ٥ .
(2) كتاب البديع : ص ٥ .
(3) السابق : ص ٧ .

ويجب التنبيه على شئ فى منهج ابن المعتز فى الاستشهاد ، فقد وجدتـــه أحيانا لا يراعى ترتيب أبيات القصيدة فى ديوان الشاعر إذا استشهد بأبيات من قصيدة واحدة وتَحقَّقَ الشاهدُ فى كل بيت ، ومن ذلك أنـــه استشـــهد فى رد الأعجاز على الصدور بثلاثة أبيات من قصيدة واحدة لأبى تمام ، قال ابن المعـــتز (وقال أيضاً :

ومَنْ كانَ بالبِيْضِ الكَوَاعِـــبِ مُغْرَمـــاً فما زِلتُ بـــالبِيضِ القَوَاطِـــعِ مُغْرَمـــا
ومَنْ تَيَّمتْ سُـــمْرُ الحِسَـــانِ فُـــؤَادَهُ فما زِلتُ بالسُـــــمْرِ العَـــوَالى مُتَيَّمـــا
تَجَشَّـــمَ حِمْـــلَ الفَادِحـــاتِ وقَلَّمـــا أُقِيمَتْ صُدورُ المَجْدِ إلا تَجَشُّـــــمَا [1]

ففى كل بيت من الثلاثة شاهد لرد الأعجاز على الصدور ، فـــ(مغـرم) فى عجز البيت الأول ترد على (مغرم) فى آخر الشطر الأول ، و(متيم) فى عجز الثانى ترد على (تيمت) فى صدره ، و (تَجَشُّم) فى عجز الثـــالث تـــرد علـــى (تَجَشَّمَ) فى صدره ، وترتيب الأبيات فى ديوانه [2] هكذا : الأول والثانى همـــا البيتان ١٦ ، ١٧ من القصيدة أما الثالث فهو البيت رقم ٥٧ منها ، أى أن ابن المعتز ترك بين البيت ١٧ والبيت ٥٧ أربعين بيتاً ، وهذا لا يضره لأن فى كـــل بيت شاهدا مستقلا بذاته ، ولكن لما كان وضع الأبيات فى كتاب البديع موهـــم أنها مرتبة فى ديوان الشاعر على هذه الصورة من التتابع وجب التنبيه على هـــذا الصنيع الذى اتبعه أيضا فى الفن ذاته ومع الشاعر ذاته فى بيتيه :

---

(١) كتاب البديع : ص ٥٢ .
(٢) ينظر ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ٣/٢٣٦ ، ٢٤٤ .

إلى سالمِ الأخلاقِ مـــن كلّ عائب وليـــــــــس له مالٌ على الجُودِ سَالِمُ
إذا سَيفُه أَضْحَى على الهَامِ حَاكِماً غدا العفُو منه وَهْوَ فى السيف حَاكِمُ [1]

هكذا ترتيبها فى كتاب البديع ، والأول منهما هو البيـــت رقـــم ٢٠ والثانى رقم ٢٦ فى قصيدة أبى تمام .

ولم يخل كتاب ابن المعتز من شواهد من إبداعه هـــو شـــعراً ونـــثراً ، فاستشهد بشئ من شعره فى موضعين [2] وبفِقَرٍ من نثره فى ثلاثة مواضع [3] من بينها موضع نفيس يحفظ نصاً من كتابه المفقود الذى عنوانه "الفصول الصغـــار القصار" ، قال ابن المعتز فى شواهد المطابقة : (وقلت فى "الفصـــول الصغـــار القصار" [4] : طلاق الدنيا مَهْرُ الجَنَّة . غَضَبُ الجاهل فى قوله ، وغَضَبُ العـقل فى فعله) [5] وكانت المطابقة عند ابن المعتز –كما فى هذا المثال– يدخل فيها مـا اصطلح عليه المتأخرون بـــ "المقابلة" ، ففى مثاله هذا مقابلة معنيين بمعنيـــين ، فقابل الطلاق بالمهر والدنيا بالجنة ، كما قابل معنيين آخريـــن بمعنيـــين فقـــابل الجاهل بالعاقل والقول بالفعل ، والمقابلة فى الجملة الأولى تصور الدنيا والجنـــة كأنهما ضَرَّتان : فى رضى إحداهما سخط الأخرى ، وإن الزوجة الثانية لتكتفـــى وتسعد بأن يكون مهرها هو طلاق الأولى ، وهكذا الجنة مهرها طلاق الدنيـــا ؛

---

(١) كتاب البديع ص ٥٢ والبيتان فى ديوان أبى تمام ٣/١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) ينظر كتاب البديع : ص ٥٢ ، ٥٦ .

(٣) ينظر كتاب البديع : ص ١٤ ، ٤٠ ، ٤٦ .

(٤) هذه تسمية ابن المعتز لكتابه ، وهو مفقود كما ذكر د . خفاجى فى كتابه ابن المعتز وتراثـــه بعنـــوان "الفصول القصار" وكذا فى ص ٤٨٧ حين جمع ما وقف عليه من هذا الكتاب المفقـــود ، وكـــذا نقـــل تسميته من زهر الآداب ٢/٢٦٦ ، وهى كما ترى تسمية مختصرة لعنوان الكتاب ، وتمامها ما ذكر ابـــن المعتز نفسه فى قوله السابق "وقلت فى الفصول الصغار القصار" .

(٥) كتاب البديع : ص ٤٦ .

وقد تآزرت الاستعارة المكنية مع المقابلة فى تصوير هذه الحكمـــة القصـــيرة ، فجعلت الاستعارة الدنيا والآخرة امرأتين أولاهما تطلق وأخراهما تتزوج ويُدْفَع مهرُها ، (ومن يخطب الحسناء لم يُغْلِها المهر) ، والحكمة تؤكد أن حب الدنيـــا والجنة لا يجتمعان لأنهما ضدان ، وتجعلنا أمام صورتـــى طـــلاق وزواج علـــى الحقيقة ، وما تقول فى حسن العبارة عن انقطاع العلائق بين الإنسان والدنيـــا بالطلاق وهو البينونة الكبرى التى استحال معها السكن والمودة والرحمة .. ومن ذا يغالب حب الدنيا والتعلق بها وهى الزوجة الحسناء الطروب المختالة بزينتـــها التى يتمتع بها الآن فلا يُمنَع لأنها حليلته ، من ذا يغالبها ليتعلق بأخرى حســـناء طروب لَّما يرها بعد ؛ لأن موعدها الآخرة ، ولَّما يَسْكُنْ إليها بعد ؛ لأن مكانهـــا دار الخلد ؟

ولقد لفت ابن المعتز فى صدر شواهده إلى طريق قيم لتـــذوق البيـــان والاطلاع على محاسنه ، وذلك بفرض بديل أو بدائل لما ورد فى النص ، فممـــا مثل به للاستعارة قول القائل "الفِكْرةُ مُخُّ العَمَل" قال : "فلو كان قال : لُـــبُّ العمل ، لم يكن بديعا" [1] أى لم يكن استعارة ، فللدارس -إذا أراد التـــذوق- أن يحاول تقليب النص على وجوهه المحتملة ليعرف ما يغيب من أسراره ومـــا يحضر مع كل وجه ، فلو حذف كلمة فماذا يفقد من النص ، ولو بدل كلمـــة بأخرى ، ولو قدم أو أخر ، ولو عرف أو نكر ..... الخ ، وهذا هو الســـبيل إلى تربية الذوق البلاغى ؛ "لأن معرفة الفكرة البلاغية وحدها لا تربى ذوقا بلاغيا ، وإنما يكون ذلك حين تدخلها فى باب التحليل ، وتعيد بها ولها بنـــاء الكـــلام ، يعنى تفككه أولا ثم تبنيه على وجه آخر ، وتقارن ما جاء عليه ، وما كان يمكـــن أن يجئ عليه ، وهذا طريق شائع جداً فى كل دراسات عبد القاهر ، وهذا هـــو

---

(1) كتاب البديع : ص ٢ .

يجئ عليه ، وهذا طريق شائع جداً فى كل دراسات عبد القاهر ، وهذا هو الفهم الصحيح للبلاغة ، وفهم المسألة وحدها فهما نظرياً علم ناقص" [1] .

وفى قول القائل "الفكرة مخ العمل" استعارة مكنية تقوم على تشـــبيه العمل بالإنسان أو كائن حى له مخ ، والمخ مصدر حركات الكائن الحى وعنـــه تصدر كل تصرفاته : يسعى ويتحرك ويأخذ ويدع ويبنى ويهدم ، فـــإذا نـــزع عمل هذا المخ من الكائن الحى بقى مجنونا ، وكذلك إذا نزعت الفكـــرة مـــن العمل وصدر العمل لا عن فكرة وروية وتأمل ، بل صدر عن خبـــط عشـــواء وتسرع ، بطل بطلانا ولم تعد له قيمة ، وتأمل صورة العلم بلا فكـــرة وضـــع بجوارها صورة الرجل بلا عقل أى المجنون تعرف قيمة الفكرة بالنسبة للعمـــل كأنك تراها رأى عين ولو قلت "الفكرة روح العمل" لبقيت الاستعارة المكنيـــة أيضا ولكن بحس آخر يجعل انتزاع الفكرة من العمل موتا له ، كما أن انـــتزاع الروح من الحى موت له .

ولو قلت –كما افترض ابن المعتز– : "الفكرة لـــب العمـــل" لرجـــع الأسلوب إلى الحقيقة ؛ إذا أريد بلب العمل خالصه وخياره" [2] ، فـــإذا كـــان بمعنى العقل فالاستعارة قائمة .

### د - شواهد ابن المعتز فى كتب البلاغيين :

لاشك فى أن من وقف على شواهد ابن المعتز فى كتـــاب البديـــع ، ثم تفقدها فى كتب البلاغيين من بعده ، فإنه يجدها جملة ، أو يجـــد أكثرهـــا ، أو أطرافا منها ، وقلما تجد فى كتاب فنا من الفنون الثمانية عشر التى تناولها ابـــن

---

(1) مدخل إلى كتابى عبد القاهر د . محمد أبو موسى : ص ١٢٦ نشر مكتبة وهبة ط / أولى ١٤١٨ هـــ / ١٩٩٨ م .

(2) لسان العرب : (لبب) ٣٩٧٩/٥ .

المعتز ولا تجد فيه شاهدا من شواهده ، وهذا قاطع فى اعتماد البلاغيين بعد ابـن المعتز على كتابه أو على من نقل عنه وأخذ منه على أدنى تقدير .

ولا يزال التأريخ لشواهد البلاغة –بتتبع سيرتها فى مؤلفات القوم تتبعـا دقيقا يحدد – على وجه اليقين – أول من اقتنص هذا الشاهد أو ذاك من سمائـه حيث كان فى كتاب الله تعالى أو فى بيان الحبيب صلى الله عليه وسلم أو فى نـثر الكاتب أو شعر الشاعر فولج به ساحة الفكر البلاغى ثم سار سيرته فى كتـــب البلاغة ومستودعات علومها – لا يزال هذا اللون من التأريخ بابا مفتقـــرا إلى دراسات جادة تنهض بحقه وتوفيه ، وتيسر سبيل العلم بكل شاهد برصد مظانه وتحقيق أول من صيره شاهدا بلاغيا ، مع تحليله تحليلاً كافيا شافيا [1] .

---

([1]) فى المكتبة البلاغية عديد من كتب الشواهد ، أشهرها : "معاهد التنصيص على شـــواهد التلخيـــص" للعباسى ت.محمد محيى الدين عبد الحميد ط / عالم الكتـــب ١٣٦٧ هـــ/ ١٩٤٧ م ، ومـــن كتـــب الشواهد البلاغية ما هو مخطوط ، مثل "شرح أبيات الإيضاح" لفخر الدين الخُوارزمى ، مخطوط المكتبـــة الأزهرية رقم ٤٣ بلاغة ودار الكتب المصرية برقم ١٢ م ومكتبة فيض الله باستانبول برقـــم ١٨١٦ ، ومثل "شواهد المطول المسمى عقود الدرر فى حل أبيات المطول والمختصر" لحسين بن شـــهاب الديـــن العاملى (١٠١٢-١٠٧٦ هـــ) ، مخطوط المكتبة الأزهرية رقم (٥٤٦) ١١١٥٤ ، وكتبت الدكتـــورة نجاح أحمد الظهار رسالتها القيمة "الدكتوراه" فى "الشواهد الشعرية فى كتاب دلائل الإعجاز للشيخ عبـد القاهر الجرجانى ، توثيق وتحليل ونقد وطبعت بالسعودية ط / أولى ١٤١٦ هـــ/١٩٩٦ م ، وعنـــها اقتبست الإلمامه السابقة ٦٢/١-٦٧ . والكتب الأربعة السابقة تعنى بتحليل الشاهد البلاغى فى كتـــاب واحد لا غير ، فالأول قائم على شواهد تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى فقط ، والثـــانى قـــائم علـــى شواهد الإيضاح له . والثالث خاص بشواهد المطول فقط ، والرابع مقصور على الشواهد الشـــعرية فى كتاب دلائل الإعجاز خاصة .. وهذا غير ما أدعو إليه هنا ، لأننى أدعو إلى تتبع الشـــواهد البلاغيـــة فى التراث البلاغى كله ، تتبعا تاريخيا مع تحليلها تحليلا وافيا ، ولو أنجز هذا لكان موسوعة كاملة للشـــواهد البلاغية ، تخدم كل من رام شاهدا بلاغيا خدمة وافية .

وقد لاحظت أن الإمام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ أو ٤٧٤ هـــ) فى حديثه عن "الاستعارة" أورد كثيرا من شواهد ابن المعتز ، مما يؤكد أن كتاب البديع مصدر من مصادر الإمام ، ومن دلائل ذلك قول الإمام عبد القـــاهر : (ولا يَقْنَعُ طالبَ التحقيق أن يقتصر فيها [١] على أمثلة تُذْكَرُ ، ونظائرَ تُعَدُّ ، نحو أن يقال : "الاستعارة" مثل قولهم "الفكرة مخ العمل" ، وقوله :

وعُرِّىَ أَفْراسُ الصِّبَا ورَوَاحِلُهْ

وقول الأعرابى : "كانوا إذا اصْطَفُّوا سَفَرَتْ بينـــهم السِّـــهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فَغَر الحِمَام" ..... ويؤتَى بأمثلةٍ =إذا حُقّق النظر = كالأشياء يجمعها الاسم الأعم . وينفرد كل منها بخاصَّةٍ ، من لم يقف عليها كان قصـــيرَ الهِمَّةِ فى طلب الحقائق . ضعيفَ المُنَّةِ فى البحث عن الدقائق .." [٢] فهذه الأمثلة الثلاثة من شواهد كتاب ابن المعتز فى فن "الاستعارة" ، نَسَبَ الأول منـــها إلى إبراهيم النَّخَعى . والثانى إلى زهير بن أبى سلمى ، وقدَّمَ للثالث بقوله : "وصـف أعرابى قوما فقال ....." [٣] ، وهذا قاطع فيما ذكرت من اعتماد الشيخ الإمـام على كتاب ابن المعتز ، وقد نبه العلامة محمود شاكر –رحمه الله– فى تحقيقـه إلى أن الإمام عبد القاهر فى هذه الفقرة "يضرب المثل بـما كـان فـــى كتـب البلاغة قبله" [٤] . والآن أجزم أن هذا المثل من كتاب البديع لابن المعتز .

وهذه الأمثلة اتخذها الإمام عبد القاهر منطلقا فى فاتحة كتابه "أســـرار البلاغة" ليرسى عمود منهجه البلاغى وهو عدم القناعة بالنظرة العامة المجملـة ،

---

(١) أى فى التشبيه والتمثيل والاستعارة .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٧ ، ٢٨ بتصرف ت / شاكر .

(٣) كتاب البديع : ص ٢ ، ٦ ، ٨ .

(٤) حاشية تحقيق الأستاذ شاكر لأسرار البلاغة ص ٢٦ من الحاشية رقم (١) .

وضرورة الوقوف على الخاصَّةِ المفردة فى كل أسلوب ، فلا يصـــح أن يقنـــع طالب التحقيق بوصف الأمثلة المذكورة بأنها "استعارة" ويكتفى بهذا ويرضى به ، بل يجب أن يقطع أشواطاً من الفكر والنظر ليعرف الفروق بينها وطبائع كـــل منها وهل هى كلها من واد واحد ؛ ويدقق فى معرفة ما تنفرد به كل اســـتعارة منها عن الأخرى ، وكأن الإمام يعنى بذلك ضرورة الارتقاء بالمنهج الذى ســـار عليه ابن المعتز ومن سلك سبيله إلى زمن عبد القاهر ، فإن ابن المعتز لما تنـــاول الاستعارة لم يزد على أن جمع شواهد لها من آى الذكر الحكيم والحديث النبوى الشريف والنثر والشعر عند المتقدمين والمحدثـــين دون أن يميـــز صـــور هـــذه الاستعارات وأنواعها ويحدد خاصَّها ومُشَاعَها وما بينها من اختلاف واتفـــاق واجتماع وافتراق ، بل اكتفى فيها بالاسم الأعم وهو أنها كلـــها "اســـتعارة" وسكت عما تنفرد به كل واحدة من خصائص . وبيان هذا المسكوت عنـــه فى كتاب البديع لابن المعتز وفى تراث السابقين للإمام هو غرض الإمام ومقصـــده من تأليف كتابه "أسرار البلاغة" [1] .

وكنت حاولت أن أتتبع شواهد "الاستعارة" عند ابن المعتز فى كتـــب البلاغيين من بعده فأعيانى طِلاَبُ ذلك ؛ لغزارة شواهده ، التى استهلها بخمـــس آيات من الذكر الحكيم هن عيون شواهد الاستعارة ، ثم بستة أحاديث نبويـــة شريفة ، وبنحو أربع صفحات شواهد متتابعة من كلام الصحابة رضى الله عنهم ، ثم أتبعها بواحد وثمانين شاهداً شعريا للمتقدمين والمحدثين ، ولكـــن يكفـــى فى الدلالة على ما أردت أن ننظر إلى ما اشتهر من شواهده فى كتب البلاغيين مـــن بعده ، وهى من القرآن الكريم قوله تعالى : (هُوَ الذِى أَنْزَلَ عَلَيكَ الكِتَابَ مِنْـــهُ

---

(1) راجع أسرار البلاغة ص ٢٧ ، ٢٨ ت / شاكر .

آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ) [1] . (وَاخْفِضْ لَهُمَـا جَنَـــاحَ الـــذُّلِّ مِـــنَ الرَّحْمَةِ) [2] . (واشْتَعَلَ الرأْسُ شَيْبًا) [3] ، (أو يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَومٍ عَقِيـــمٍ) [4] . (وآيَةٌ لَهُمُ اللَّيلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) [5] وهى شواهد سيَّارة للاستعارة فى كثير من كتب البلاغة .

ومن الشواهد النبوية المشهورة للاستعارة قوله صلى الله عليه وســـلم "خَيرُ الناس رَجُلٌ مُمْسِكٌ بعَنانِ فَرَسه فـــى سبيلِ الله كُلَّما سَمِعَ هَيْعَـــةً طـــارَ إليها" [6] ، "ضَمِّنُوا ماشِيَتَكُم حتى تَذْهَبَ فَحْمَةُ العِشاء" [7] ، "إنا لا نَقْبَلُ زَبَـــدَ

---

(1) سورة آل عمران ٧ وهى شاهد كتاب البديع ٣ وتلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضـــى ٤١ (ت د . على مقلد) .

(2) سورة الإسراء ٢٤ وهى شاهد كتاب البديع ٣ وتحرير التحبير لابن أبى الإصبع ٩٨ والمثـــل الســـائر ٣٥٣/١ وإعجاز القرآن للباقلانى ٦٦ (ت السيد صقر) وتلخيص البيان فى مجـــازات القـــرآن ١٤٩ ونهاية الإيجاز ١٨٩ .

(3) سورة مريم ٤ شاهد البديع ص ٣ والصناعتين ٢٧٢ وأسرار البلاغة ٢٧٤ ودلائل الإعجـــاز ١٠٠ ، ٣٩٣ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٢٧ ، ٥٢١ وتحرير التحبير ٩٨ والموازنة ٢٦٩/١ وإعجاز القـــرآن ٦٦ ، ٧١ وتلخيص البيان فى مجازات القرآن ١٧١ ونهاية الإيجاز للرازى ١٧٢ (ت . أحمد السقا) .

(4) سورة الحج ٥٥ شاهد كتاب البديع ص ٣ والصناعتين ٢٧٢ وإعجاز القرآن ٦٦ وتلخيص البيـــان فى مجازات القرآن ١٩٤ .

(5) سورة يس ٣٧ شاهد كتاب البديع ص ٣ والصناعتين ٢٧٣ ودلائل الإعجاز ٥٢١ وتحرير التحبـــير ٢٢٨ والموازنة ٢٦٩/١ وإعجاز القرآن ٦٦ وتلخيص البيان ٢٥٣ ونهاية الإيجاز ١٨٧ ، والإيضـــاح ١٧٧/٣ .

(6) رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإمارة ، و"باب فضل الجهاد والرباط" . وهو شاهد كتاب البديـــع ص ٣ والصناعتين ٢٧٧ . وأسرار البلاغة ص ٥٦ وإعجاز القرآن ٦٧ والمجازات النبويـــة للشـــريف الرضى ٢٠٢ والإيضاح ١١٠/٣ .

(7) ورد فى لسان العرب (فحم) شاهد كتاب البديع ص ٣ ، ٤ وتحرير التحبير ٩٩ ولم أقف بعـــدُ علـــى تخريج الحديث .

المشركين" أى رِفْدَهم [١] ، "رَبِّ تَقَبَّلْ تَوبَتى واغْسِلْ حَوبـــتى" [٢] ، "غَلَـــبَ عليكم داءُ الأممِ منِ قبلِكم الحَسَدُ والبَغْضاءُ ، وهى الحالقةُ ، حَالِقةُ الدِّيـــنِ ، لا حَالِقةُ الشَّعْرِ" [٣] .

ومن شواهده الشعرية للاستعارة ، وهى مشهورة فى كتب البلاغيين من بعده قول امرئ القيس :

وَلَيلٍ كَمَوجِ البَحْرِ مُرْخٍ سُـدُولَهُ عَلَـيَّ بـــأنواعِ الهُمُـــومِ لِيَبْتَلِـــى
فقُلتُ لـــه لَمَّـا تَمَطَّـى بِصُلْبِـه وأَرْدَفَ أَعْجَـازاً ونـاءَ بكَلْكَـــلِ [٤]

وقول زهير :

صَحَا القَلْبُ عَنْ سَلْمَى وأَقْصَرَ باطلُهُ وعُرِّىَ أَفْرَاسُ الصِّبَـا ورَوَاحِلُهْ [٥]

وقول النابغة :

وصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيلُ عَـازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فيه الحُزْنُ مِنْ كُلِّ جـانبِ [٦]

وقول عنترة :

جَادَتْ عليهِ كُلُّ بِكْـــرٍ حُرَّةٍ فتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارةٍ كالدِّرْهَـــمِ [٧]

---

(١) وهو شاهد كتاب البديع ص ٤ .
(٢) شاهد كتاب البديع ص ٤ والعمدة ٢٧٦/١ وإعجاز القرآن ٦٧ والمجازات النبوية للشريف الرضى ١٨٣ .
(٣) شاهد كتاب البديع ص ٤ وإعجاز القرآن ٦٧ .
(٤) كتاب البديع ص ٧ والصناعتين ٢٨٢ ونقد الشعر ١٧٤ ت / خفاجى والعمـــدة ٢٧٦/١ ودلائـــل الإعجاز ٧٩ ، ٣٥٩ ، ٤٧٢ وتحرير التحبير ١٠٠ والوساطة ٤٣١ وســـر الفصاحـــة ١٣٨ وعيـــار الشعر ٢٧ والموشح ٣٣ والمثل السائر ٣٦٩/١ والموازنة ٢٦٦/١ وإعجاز القرآن ٧١ ، ٧٤ ونهايـــة الإيجاز ١٧٥ والإيضاح ١١٥/٣ .
(٥) كتاب البديع ص ٨ والصناعتين ٢٨٢ ونقد الشعر ١٧٤ وأســـرار البلاغـــة ٢٨ ، ٤٧ والموازنـــة ٢٦٧/١ وإعجاز القرآن ٧٤ والإيضاح ١٤٠/٣ .
(٦) كتاب البديع ص ٨ والصناعتين ٢٨٢ ودلائل الإعجاز ٢٦٨ وإعجاز القرآن ٧٤ ونهاية الإيجاز ١٧٥ .
(٧) كتاب البديع ص ٩ والصناعتين ٢٨٢ ونقد الشعر لقدامة ١٧٦ .

وقول طفيل :

وجَعَلـــتُ كُورِى فَوقَ ناجِيةٍ يَقْتَاتُ لَحْـــــــمَ سَنامِها الرَّحْلُ [1]

وقول أبي ذؤيب :

وإذا المنيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهـــا أَلْفَيـــــــتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ [2]

وقول لبيد :

وَغَداةِ رِيحٍ قَدْ كَشَفْـــتُ وَقِرَّةٍ إذْ أَصْبَحَتْ بيـــــدِ الشَّمالِ زِمَامُهَا [3]

وقول محمد بن يزيد من ولد مسلمة بن عبد الملك يصف فرسه :

عَوَّدْتـــهُ فيمـــا أَزُورُ حَبَـــــائِبِى إِهْمَالَـــهُ ، وكَـــذَاكَ كُـــلُّ مُخَـــاطِرِ

فـــإذا احْتَبَـــى قَرْبُوسَـــهُ بعِنَانـــهِ عَلَكَ الشَّكِيمَ إلى انصِـــرافِ الزائـــرِ [4]

ونقل أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـــ) نقـــلا متواتـــرا فى بعـــض صفحاته عن كتاب البديع ، وذلك فى فن الاستعارة [5] ، وكذا صنع البـــاقلانى فى "إعجاز القرآن" [6] . ومر آنفا أن ابن رشيق صاحب العمدة نقل شواهده فى "المذهب الكلامى" من كتاب ابن المعتز [7] .

وتتبع شواهد ابن المعتز فى كل فن من الفنون الثمانية عشر فى كتـــب البلاغيين يطول ، ومن قرأ كتاب ابن المعتز ثم قرأ تراث البلاغيين مـــن بعـــده يعرف شواهده ، ويعرف قدره وسبقه .

---

(١) كتاب البديع ص ١٠ والصناعتين ٢٨٣ ونقد الشعر ١٧٦ والعمدة ٢٧٤/١ والموازنة ٢٧٦/١ والإيضاح ١١٢/٣ .

(٢) كتاب البديع ص ١١ والصناعتين ٢٨٤ ونقد الشعر ١٧٧ والموازنة ٢٦٨/١ ونهاية الإيجاز ١٧٦ والإيضاح ١٣٩/٣ .

(٣) كتـــاب البديـــع ص ١١ والصنـــــاعتين ٢٨٥ والعمـــــدة ٢٦٩/١ وأســـــرار البلاغـــــة ٤٥ ودلائل الإعجاز ٦٧ ، ٤٣٥ ونهاية الإيجاز للرازى ١٦٣ (ت أحمد السقا) والإيضاح ١٣٨/٣ .

(٤) كتاب البديع ص ٢٠ ودلائل الإعجاز ٧٥ والإيضاح ١١٤/٣ .

(٥) ينظر الصناعتين ٢٧٧ ، ٢٧٨ وكتاب البديع ص ٤-٦ .

(٦) ينظر إعجاز القرآن ٦٦-٦٩ .

(٧) انظر العمدة ٨٠/٢ وكتاب البديع ٥٣-٥٧ .

# فهرس المصادر والمراجع

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ت . محمود شاكر ط . المـــدنى نشـــر الخانجى ١٤١٢ هـــ / ١٩٩١ م .

(٢) الأعلام للزركلى ط . دار الفكر .

(٣) الإيضاح للخطيب القزوينى مع البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدى ط . مكتبـــة الآداب ط . خامسة .

(٤) البديع فى القرن التاسع لكراتشقوفسكى / ترجمة مكارم الغمرى / مجلة فصـــول / ١٩٨٢ م .

(٥) البديع لابن المعتز ت . كراتشقوفسكى ط . دار المسيرة / ثالثة ١٤٠٢ هـــــ / ١٩٨٢ م .

(٦) البلاغة تطور وتاريخ د. شوقى ضيف ط . دار المعارف / عاشرة .

(٧) ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان د . محمد عبـــد المنعـــم خفـــاجى ط . دار الجيل ١٤١١ هـــ / ١٩٩١ م .

(٨) البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر د . طـــه حســـين (بالفرنســـية) ترجمـــة د . عبد الحميد العبادى ، نُشِر تمهيداً لكتـــاب نقـــد النـــثر المنســـوب خطـــأ لقدامة بن جعفر ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٦ هـــ / ١٩٣٧ م .

(٩) البيان والتبيين للجاحظ ت . عبد السلام هارون ط . المدنى / خامســـة ١٤٠٥ هـــ / ١٩٨٥ م .

(١٠) تحرير التحبير لابن أبى الإصبع ت . د / حفنى شرف / المجلس الأعلـــى للشـــئون الإسلامية .

(١١) حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى لكراتشقوفسكى ترجمـــة الســـيدة / كلثـــوم عودة ، نشر الهيئة العامة لقصور الثقافة (ذاكرة الكتابة ١٤) .

(١٢) الخصائص لابن جنى ت . محمد على النجار ط . الهيئة المصرية العامـــة للكتـــاب ط . ثالثة ١٤٠٨ هـــ / ١٩٨٨ م .

(١٣) ديوان أبي تمام بشرح التبريزى ت . محمد عبده عزام / دار المعارف / رابعة .
(١٤) ديوان البحترى ت . الصيرفى / دار المعارف .
(١٥) الرسالة للإمام الشافعى ت . أحمد شاكر / دار الكتب العلمية .
(١٦) شروح التلخيص للتفتازانى والمغربى والسبكى والدسوقى / دار السرور .
(١٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة ت . أحمد شاكر ط . دار المعارف .
(١٨) الشواهد الشعرية فى كتاب دلائل الإعجاز / د . نجاح الظهار / ط. الســـعودية / أولى ١٤١٦ = ١٩٩٦ م .
(١٩) الصبغ البديعى فى اللغة العربية / د . أحمد موسى / دار الكاتب العـــربى ١٣٨٨ هـــ ١٩٦٩ م .
(٢٠) الطراز للعلوى / ط . المكتبة التجارية ١٩٥٦ م .
(٢١) علم البديع والبلاغة عند العرب لكراتشكوفسكى ترجمة وإعداد / محمد الحجيوى ط . دار الكلمة ١٩٨١ .
(٢٢) العمدة لابن رشيق ت . محمد محيى الدين عبد الحميـــد / دار الجيـــل / خامســـة ١٤٠١ هـــ = ١٩٨١ م .
(٢٣) الفهرست لابن النديم / ط . المكتبة التوفيقية / (بدون تاريخ) .
(٢٤) قراءة محدثة فى ناقد قديم / د . جابر عصفور / مقال بمجلة فصـــول / أكتوبـــر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٨٥ م .
(٢٥) الكامل للمبرد / ت . د أحمد الدالى / مؤسسة الرسالة / ثالثـــة ١٤١٨ هـــ / ١٩٨٧ م .
(٢٦) كتاب البديع وأثره فى الدراسات البلاغية / د . الشحات محمـــد عبـــد الرحمـــن أبو ستيت / بحث بمجلة كلية اللغة العربية بدمنهور / العدد الثالث ١٤٠٥ هـــ = ١٩٨٥ م دار الطباعة المحمدية .
(٢٧) لسان العرب لابن منظور / ط . دار المعارف .
(٢٨) مجمع الأمثال للميدانى / ت . محمد أبو الفضل إبراهيم / ط . عيسى الحلبى .

(٢٩) مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى / د . محمد أبو موسى / مكتبة وهبـــة ط . أولى ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .

(٣٠) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن / محمد فؤاد عبد الباقى / كتاب الشعب .

(٣١) مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى / د . فرانتزروزنتال / ترجمـــة أنيـــس فريحة / دار الثقافة / رابعة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م .

(٣٢) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحـــترى / الآمـــدى / ت . الســـيد صقـــر / دار المعارف / خامسة .

# فهرس الموضوعات


| | |
|---|---|
| • مقدمة : | ٢٦٧ |
| • ابن المعتز : | ٢٧١ |
| أولاً : مع تحقيق كتاب البديع وشرحه : | ٢٧٢ |
| • كراتشقوفسكى ونشرته : | ٢٧٦ |
| • مما أثاره المستشرق عن ابن المعتز وكتابه : | ٢٨١ |
| • شرح كتاب البديع لابن المعتز : | ٢٨٦ |
| ثانيا : دراسة فى كتاب البديع : | ٢٨٩ |
| ١ـ غرض الكتاب : | ٢٨٩ |
| ٢ـ الكتاب ثمرة معركة نقدية : | ٢٩١ |
| ٣ـ الفرق بين البديع عند المتقدمين والمحدثين : | ٢٩٤ |
| ٤ـ المصطلحات البلاغية فى الكتاب : | ٢٩٥ |
| ٥ـ شواهد كتاب البديع : | ٣٠٠ |
| أ – الكتاب يكاد يكون شواهد كله : | ٣٠٠ |
| ب ـ أساسان لاختيار الشاهد : | ٣٠١ |
| جـ – منهجه فى شواهده : | ٣٠٦ |
| د – شواهد ابن المعتز فى كتب البلاغيين : | ٣١٤ |
| • فهرس المصادر والمراجع : | ٣٢١ |
| • فهرس الموضوعات : | ٣٢٤ |


❖ قال العاجز / سلامة داود : تم بحمد الله تعالى مراجعة أصول هذا البحـــث فى دسوق مساء يوم السبت الثانى من شهر الله المحرم عام ١٤٢٣ هـــ الموافـق ١٦ من مارس عام ٢٠٠٢ ، وأرجو ممن وقف فيه على خطأ أن يكرمنى بذكـــره ، والله المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .